الرثاء في الشعر العراقي للقرن السادس الهجري (دراسة موضوعية فنية)

د. سعاد جاسم محمد الصميدعي
جامعة الموصل / كلية التربية الأساسية

تاريخ تسليم البحث : 2005/3/22 ؛ تاريخ قبول النشر : 2005/3/30

ملخص البحث :

تناول هذا البحث الرثاء في الشعر العراقي للقرن السادس الهجري ، منطلقا من مفهوم عام للرثاء يشمل انواعه الثلاثة المعروفة وهي الندب ، والعزاء ، والتأبين دون الدخول في مسمّياتها وتفصيلاتها الاصطلاحية ، بل من من حيث وجودها في نماذج من الشعر تتوزع على مباحث عنيت بالفئات المشمولة بالرثاء بدءا من الذات وانطلاقا الى الاخرين بحسب طبيعة العلاقة التي تربط الشاعر الراثي بهم ، لذا فقد شملت المباحث ، رثاء الذات ، ورثاء الابناء ، ورثاء الاقارب ، ورثاء الخلفاء ورجال الدولة واكابر الناس ، ورثاء النساء ، ورثاء آل البيت ، وحقيقة الحياة والموت ، وكان الهدف تحقيق دراسة موضوعية فنية تنطلق من النص والى النص .

Elegy in the Iraqi Poetry during the sixth Higrate Century : (An Objective Artistic Study)

Dr. Suad Jasim Al-Sumaida'l
Mosul University\College of Basic Education

Abstract:

The present study deats with elegy in the Iraqi poetry during the sixth higrate centerury explaining the general concept of elegy with its three kinds : cosolation , lamentation and mourning without going into details and terminology , but through samples of poetry distributed to section which deal with the categories included in elegy beginning with self elegy and moving to the other kinds according to the relationship of the poet to the deceased . The sections dealt with selfelegy , elegy of sons , rclatives , caliphs , ministers , state of ticials , prominent men and women and elegy of the people of muhammeds house , the reality of life and death . The aim of the research in to achieve an objective study depending on texts .

تمهيد :

اشار بعض الباحثن في شعر القرن السادس الهجرى الى ظاهرة قلة المراثي في الشعر[1] ، وهذا أمر قد نتفق عليه ونختلف في اسبابه ، اما الظاهرة الثانيه التي اشار اليها الباحث الكريم فهي ما زعمه من عدم جودتها بصورة عامه ، واتهمها بالبرود والهزال وشحوب العاطفة[2] وفي تقديرنا ان هذا حكم انطباعي بعيد عن الموضوعية ؛ اذ ان الباحث لم يلجا الى التحليل الفنّي لقصائد ومقطعات الرثاء ليحكم . حكماً عادلاً ، ويدرك وجود نماذج من الرثاء ترقى الى مستوى الجودة والتأثير .

فحين يمتلك الشاعر ادواته وصدق تجربته الشعورية وقدرته على النقل المؤثر لهذه التجربة بغض النظر عن الزمان والمكان يكون من الجور ان نطلق احكاما تعميمية بحقّه ، لذا ستكون المباحث المتضمنه انماطا من الرثاء خير حكم لتبيان مستويات التأثر والتأثير في النص .

مفهوم الرثاء :

لغة : رثى فلان يرثيه رثياً ومرثيه أي : يبكيه ويمدحه والاسم : المرثية [3] ، واصله غير مهموز [4] .

ويقول ابن فارس :((ان اجتماع الراء والثاء والحرف المعتل اصلى في الثلاثي يدل على رقّه واشفاق ، يقال : رثبت لفلان ، أى رققت))[5] .

اصطلاحا : بكاء الميت وتعداد حسناته بالشعر والنثر . وفي مرجعية الرثأء الى المديح يقول ابن رشيق القيرواني : ((الشعر كلّه نوعان ، مدح وهجاء ، فإلى المدح يرجع الرثاء ، والتشبيب وما تعلّق بذلك من محمود الوصف ... الخ))[6] .

وهذا ما يؤكده بعض المعاصرين من ان ((الرثاء فن شعري يلتقي في كثير مع فن المديح ، اليس هو تعدادا لفضائل المتوفي ومآثره ؟! وهكذا يسير فن الرثاء في هذا الاطار موازيا لفن المديح مرورا لما يبرز فيه من معانٍ جديدةٍ))[7] ، ويخرج الرثاء لمعان أهمها :

- **الندب** : من معانيه النواحُ والبكاء على الميت بعبارات محزنة ، مع إسراف في النحيب وسكب الدموع . [8] وكأن النويري عنى هذ النوع من الرثاء حين علل وجود المراثي بقوله ((إنما جعلت تسلية لمن عضته النوائب بانيابها ، وفرّقت الحوادث بين نفسه واحبابها))[9]
- **التأبين** : ومعناه مدح الميت والثناء عليه وذكر الفضائل الخلقية فيه [10] .
- **التعزية** : ومعناها ، التصّبر عن فقدِ من يموتون ، والتأسي بالحكم وضرب الامثال لتهوين المصيبة [11] .

وقد قيل في الرثاء انه ((احسن مناطق الشعر))[12] وقيل : ((كانت بنو أمية لا تقبل

الراوية الا ان يكون راوية للمراثي ، قيل : ولم ذلك ؟ قيل : لانها تدلّ على مكارم الاخلاق))[13].

انواع الرثاء من حيث العلاقة بين الراثي والمرثي :

- رثاء الذات :

يعرف ابن سينا الذات بانها ((مغايرة – لهذا البدن واجزائه الظاهرة والباطنة))[14] ويفصل ابن سينا القول : ((تأمل ايها العاقل اليوم في نفسك هو الذي كان موجودا في جميع عمرك حتى انك تتذكر كثيرا مما جرى من احوالك، فانت اذن ثابت مستمر لاشك في ذلك))[14] وكأننا بابن سينا يشير الى الذات الشخصية وهي مجموعة مكونات الذات من وجهة نظر معاصرة تقسم الذات الى ذات تجريبية ، وذات روحية ، وذات مادية ، وذات اجتماعية ، وذات جسدية[15] . ومهما يكن من امر هذه التقسيمات والمكونات للذات فهي في المحصلة النهائية ستتعين من خلال جملة من المظاهر السلوكية ، ولعل اكثر ما تتجلى المظاهر السلوكية لهذه الذات لدى المرء حين يدهمه خطر الموت مقترن ببعض مسبباته او بعض مظاهره كالمرض او الكبر او الاصابات المحيلة الى الموت .. الخ .

رثاء الذات في مرض الموت :

تجربة الموت تجربة حتمية فيها ختام تتجلى فيه ذات المرء كاشفة عن ضعفها وعجزها امام هذه الحتمية ، وتبقى هنا فروق ذاتية بين تعادلية الايمان بالحياة والموت ، او طغيان حب الحياة على بدائله ، او ايثار الموت على الحياة لاعتبارات مختلفة المنطلقات ولعل الحالة الثانية هي الطاغية لما جبل عليه الانسان من حبّ الحياة مصداقية لقوله تعالى : ((بل تؤثرون الحياة الدنيا))[16] .

وليس رثاء الذات بالامر الجديد على الشعراء حين يشعر احدهم بقرب النهاية فيحس بحاجته الى نعي نفسه امام الاخرين ، لذا نزعم أنّ وجود الاخرين حول الراثي المرثي يخفف عنه احساسه بقرب الاجل ، ويعطيه دفقاً عاطفياً باتجاههم ، لذا فان ((بكاء الاهل له وقع اثير في ذات المحتضر وغيره ، اذ ليس اجمل من أن يحس الانسان بوجود اشخاص يشاركونه حزنه لمفارقة هذه الحياة))[17] . وهذه صفة اصيلة عند العرب دون غيرهم ، وقد قال الجاحظ بهذا الصدد : ((ولكن العجم ليست لها عناية بحفظ شأن الاموات ولا الاحياء))[18] وهذا ما نجده في قول الشاعر ابي طاهر بن شعيبان البغدادي (ت517هـ) [19] يخاطب جماعة يعودونه في مرضه الذي مات فيه :[20]

خليـــيَّ هـــذا آخـــرُ العهـــدِ مـــنكُمُ ومنـــي فهـــل مـــنْ موعـــدٍ نســـتجدّهُ

لآن اخـــاكم حـــلَّ فـــي دار غربـــةٍ يطـول بهـا عـن هـذه الـدار عهـدُهُ
فـــلا تعجبـــوا اذ خـــفَّ للبـــين رَحلُـــهُ وقـــد جَـــدَّ فـــي إثـــرِ الأحبـــةِ جِـــدُّهُ
علـــى أن فـــي الـــدارين تلـــك وهـــذه لـــه صـــاحبُ يهـــوى وإلْـــفُ يـــودُّهُ
وقد أزمع المسكينُ عنـكم ترحّلاً فهل فيكمُ مِنْ صادقٍ يستـردُّهُ

احساس بفراق الخلان فراقاً لا عودة بعده ، والموت عنده دار غربة راحل إليها ، موقن بها مستسلم وهو يحاول ان يعزي نفسه بانه اذا ما خف للرحيل فهو جاد في اثر احبة سبقوه لايجاد نوع من الموازنة بين الدارين بان له في كل منهما إلفاً وصاحباً وليتقبل حقيقة الموت ، لكن تشبثه بالحياة يفضحه فيبدو مستجديا الحياة من خلال طلب الاسترداد من عوّاده ، ولعله تعمد استخدام لفظة (المسكين) لما فيها من استكانة وخضوع واستثارة لمشاعر من حوله واستخدامه للفعل الماضي (حلّ) في البيت الثاني ليس تعجلا للموت بل نظنه جزءاً من محاولة اقناع للذات بالاستسلام والقبول ، ولم نجد في الحياة الحضرية ، وفي اوقات السلم والامان من رثى ذاته اثراصابة مفاجئة جاءته من ضربة سيف او طعنة رمح او لدغة افعى او أي حادث طارئ ، بل الذي وجدناه رثاء للنفس اثناء مرض قد يطول ، ويمتد وتستحكم فيه علة من الجسد بما ينذر بقرب الهلاك والمصير المحتوم .

لذا كانت الحكمة المغلفة بحتمية الموت ، والاناة في رسم صورة الحدث بريشة فنان متأن متيقن مما ستحتويه مضامينها .

ومن المؤكد ان آلآم الجسد وأسقامهِ ، واشتداد العله على الشاعر المحتضر ، يجعله اكثر يأسا واحساسا بقرب الاجل ، لذا نجده يبعد عن المبالغة المعهودة لدى الشعراء ، فيكون اسلوبه اقرب الى التقريرية في قالب فني بسيط ، فهذا ابن الهبارية الشاعر المعروف (ت504هـ) [21] يرثي نفسه في مرضه الذي مات فيه قائلا: [22]

لـــم يبـــقَ مـــن نفســـي ســـوى نفـــسٍ فـــانٍ ومـــن شمســـي ســـوى فلـــقِ
جســـدي الـــذي لعـــب الســـقامُ بـــه حركاتُـــــهُ حركـــــاتُ مختنـــــقِ
لـــم تتـــرك الاســـقامُ فـــي بـــدني الـــ مســـــكينِ معترقـــــاً لمعتـــــرقِ
فلقـــد طلبـــتُ الصـــبرَ محـــتملاً مـــا بـــي مـــن البلـــوى فلـــم أطِـــقِ
يا عائدي والنصـحُ مِنْ خُلُقـي لا تَدنُ مِنْ نفسـي فتحتـرقِ

فالرجل اتعبته اسقام بدنه التي اعرقت لحمه وعظمه حتى افقدته صبره على احتمال البلوى ، وهو ينصح عوّاده بعدم الاقتراب منه لكي لا يحترقوا بحرارة انفاسه ، ولعل في هذا مبالغة مقبولة للتعبير عن شدة الحمى ، وربما كان استخدامه لقافية حرف القاف بما فيه من القلقة والجهارة تعبيرا عن رغبته في الانعتاق من وطأة المعاناة المختنقة بضغط الالم ، واستخدام

الفاظ مثل : النفس الفاني ، السقام ، مختنق ، الصبر ، والبلوى ، وغيرها كان موفقا في رسم صورة معاناة الرجل .

رثاء الذات في الكبر :

تتناغم الشيخوخة تناغماً كلّياً مع مفردات الموت والفناء والنهاية الوشيكة ، مع ما يرتبط بذلك من دواعي الضعف الانساني ، حين تثقل السنون كاهل المرء بأعباء الحياة وتعاقب الاحداث ، مما يحيله الى حالة من الانشداد الذي يلجئه بالضرورة الى تأمل واعٍ حزين يعتمد استحضار الماضي بكل عنفوانه وألقه وحيويته ، لتقوم موازنة بينه وبين الحاضر بكل ضعفه وعجزه ، وقديما قال الشاعر[23] :

وللموتُ خيرُ لامريءٍ من حياتهِ ... بدارةِ ذلٍّ عليلاً ما يوقّرُ

فحين يشيخ المرء ، ويترك الزمن بصماتِه الواضحة على عودة في وهن الجسد ، وانحناءه الظهر ، وذبول الحياة في تغضنات الوجه واعتلال الصحة والشيب[24]،وما الى ذلك من مظاهر تنذر بقرب الاجل واقتراب المرء من النهاية ، تظل ثمة وشائج تشده الى الشباب في تضاد ثنائي بينه وبين الشيخوخة،فهذا ابن الدهان النحوي (ت569هـ)[25]يلجا الى المقارنة بين عهد الصبا واعتدال القامة من جهة وبين الكبر وانحناء القامة من جهة اخرى قائلا:[26]

وعهدي بالصّبا زمنا وقدّي ... حكى ألفَ ابنِ مقلة(27) في الكتابِ

فصرتُ الآن منحنياً كأنّي ... أُفتشُ في الترابِ على شبابي

فقد استعان بالتشبيه في تجسيد هذه المقارنة ؛ اذ جعل قده مشبها ألفَ ابنِ مقلة في الاعتدال زمن الصبا والشباب ، وشبّه انحناءه في الكبر ، وكأنه يفتش في التراب عن شبابه الذاهب ولنلاحظ ان الشاعر لم يعط الصورة التشبيهيه في البيت الثاني صفة الاطلاق ؛ اذ قيدها بامنيته الكامنة في استرجاع شبابه .

وهذا الاسترجاع امنية لم يَتَخلّ عنها حتى خليفة مثل المسترشد بالله العباسي وهو يناشد الشباب طالبا التريّث : [28]

اقول لشرخ الشباب اصطبرْ ... فولّى ، وَرَدّ قضاء الوطرْ

فقلت قنعتُ بهذا المشيبِ ... وإن زالَ غيمُ فهذا مطرْ

فقال المشيب : أيبقى القتارُ ... على جمرةٍ ذابَ منها الحجرْ

وهو يعلم مسبقا ان هذه المناشدة ستفضي الى نتيجة مخيبة ، ولهذا اقام هذه الحوارية الثلاثية بينة وبين الشباب والشبب لكي يصل منطقيا الى النتيجة المعروفة مسبقا وهي استحالة ديمومة الاشياء فاذا كان قد رضي برحيل الشباب ومجيء الشيب فهذا الشيب مثل دخان الطبخ لا يلبث ان يتلاشى بنهاية المرء المحتومة .

وقد يتجرأ رجل اخر مثل الحظيري الكتبي[29] فيصرح تصريحا مباشرا بان الشيب والكبر نذيران بقرب الأجل[30]

بـدا الشـيبُ فـي فـودي فأقصـر بـاطلي وأيقنـتُ قطعـا بالمصـير الـى قبـري
اتطمع في تسويد صحفي يدُ الصبا وقد بَيَّضَتْ كفُّ النّهى حسبةَ العمرِ

فلا يقصر باطله ولا يقطع بصيرورته الى القبر الا حين يرى الشيب في فوديه وقد جعل الباطل نفسه هو الذي يقصر استحياء من المشيب بنوع من الاحالة التي فيها شيء من الاسقاط عن نفسه ، ولا يبدو على الشاعر الندم من عبثية الصبا قدر ما تبدو عقلانية التصرف في الفصل بين زمني الشباب والشيخوخة . اما ابن التليمذ [31] فقد تذكر في اخر عمره ان ملذات الشباب كانت سكرة صحا منها ليصحّح مسار حياته مرتقبا النهاية باستسلام كلي لها .[32]

كانـــت بلهنيـــةُ[33] الشـــبيبةِ سَـــكْرةُ فصـــحوتُ واســـتأنفتُ ســـيرةَ مجمـــلِ
وقَعدتُ أرتقبُ الفناءَ كراكبٍ عرفَ المحلَّ فباتَ دونَ المنـزلِ

هذا الاستسلام واليقين بقدر الموتِ رسمته حالة التهيؤ والاستعداد له في الصورة التشبيهية التي اعتمدها الشاعر ، فالركوب تهيؤ تام للارتحال والمعرفة توطّنُ وإقرار به ، ولعل تخفيف وقع الموت جاء في احلال مفردة المنزل بديلا عن القبر .

وقريب من قرن من الزمن عاشه ابن ابي الصقر الواسطي [34] حتى تيقن ان الموت آت لامحالة ، ومن لطف الله بالمرء ان تكون التوبة وجها من وجوه اليقين بقدر الموت ، وهذا ما عبر عنه قوله :[35]

ولمّـــا الـــى عشـــرِ تســـعين صـــرتُ ومـــالي اليهـــا أبُ قبـــلُ صـــارا
تيقنـــــــتُ أنّـــــــيَ مســـــــتبدلُ بـــــداري داراً وبالجـــــار جـــــارا
فتبتُ الـى الله ممّا مضـى ولن يدخلَ الله مَنْ تاب نـادرا

انها وقفة صادقة مع النفس فيها نزوع الى التطهير وثقة بعفو الله وغفرانه ، اما لفظة الموت فقد تحاشي التصريح بها مكتفيا بكناية لطيفة عن دار الدنيا ودار الاخرة (بداري دارا) ، والاحياء والاموات (وبالجار جارا) .

ويبدو ان الانتقالة السياقية في رثاء الذات لا بد أن تحيل الراثي الى لحظة التجربة القائمة او الحدث ، وهو ترقب الموت بما يمثله من ضعف انساني ، وما يصاحبه من مشاعر الاستسلام لقدر الموت ، والخور والعجز الجسماني الى مقارنة (شعورية او لا شعورية) بزمن القوة والشباب والتألق وربما كانت آفة العمى التي يصاب بها بعضهم على الكبر اهم دواعي التوجع والاحساس بالاسى والانكسار ، فحين اصيب سبط ابن التعاويذي[36] بعينيه بدأ يبث حزنه في شعره ، بل لقد ظهر ذلك واضحا حتى في مدائحه [37] فضلا عن مقطوعاته التي رثى بها عينيه في مثل قوله :[38]

بالـــــك مـــــن ليـــــلِ حجـــــا ب جُنحـــــــــــهُ معتكـــــــــرُ
ظلامـــــــــــه لا ينجلـــــــــي وصـــــــــبحُهُ لا يســـــــــفرُ
لـــــيس لـــــه الـــــى الممـــــا ت آخِـــــــــــرُ يُنتَظـــــــــرُ
مـــــا فـــــي حيـــــاةٍ معـــــه لـــــدى حصـــــاةٍ وطـــــرُ
غادرنـي كأننـــي في كسـر بيتٍ حَجَـرُ

ينذب الرجل ليل عماه ومن ثم يندب نفسه المبتلاة بهذه الظلمة ، انها مقطوعة يقطر منها حزن رجل حجبت عنه عاهته – التي لم يألفها – كل ما ألف رؤيته من اشياء ، فعماه ليل معتكر لانهاية له ، بل هو رفيق ملازم الى الموت لم يحجب عنه الرؤية فقط بل قيد حركته باتجاه الاشياء ، هذا الاحساس بحجب الرؤية وجمود الحركة ؛ وهما من اسباب الحياة دفعاه الى التأمل في مواطن العبر ، فكان لابد من تراجع الذهن الى معطيات الحياة من شباب ومرح وحب وما الى ذلك . فهل كان التراجع استقطابا للمزيد من الحزن ام نوع من ايجاد التوازن مع حاضر مرتبط باسباب الموت ، في قراءتنا للبيت الاخير من المقطوعة

لم يبق لـي إلاّ الأســى منهـن والتذكّـرُ

لانجد الا موازنة لا يعرف ارجحية احدى الكفتين فيها الا صاحب العاهة وكانت الفاظ بعينها تطغى لتكرس احساس الشاعر بالضياع والتخبط والاحباط المفضى الى اليأس ، مثل : لا اهتدي ، اين الشباب ، لم يبق لي ، مع إلحاحِهِ في استخدام اسلوب النفي .

وبعد فان الملاحظ ان رثاء الذات قد جاء بشكل مقطعات قصيرة لا تتجاوز بضعة ابيات وهي من ثم تعتمد على المباشرة في طرح الموضوع مستغنية عن المقدّمات التي اعتمدتها انوع اخرى من الرثاء .

اما اللغة فانها تقترب من اللغة اليومية للتخاطب ، ويعلو فيها الجانب الوجداني لان الاحساس ينطلق من ذات الشاعر والى ذاته ، فلا تكلف ولا تقعّر يبعد الراثي المرثي عن الافصاح الدقيق عن مشاعره .

اما التداعيات في مقطوعة الرثاء للذات ؛ فهي من الناحية الشكلية عناصر بنائية للمقطوعة تبدأ من لحظة انبثاق مشاعر الالم الى استرجاع صور الماضي ، وما يرتبط بهذا الماضي من دواعي الشباب ، والقوة والقدرة على العطاء والحب .. مما يشكل عناصر التضاد مع حاضر الشاعر بكل ضعفه والمه وشيخوخته وانصراف الناس عنه وفي كل ما اوردنا من نماذج لم نجد تلك النفوس الراضية كل الرضا بقضاء الله المحتوم وشتان ما بين من يعتصر الحياة اعتصارا الى الرمق الاخير منها وبين من يهب نفسه للموت طائعا مختارا من أمثال اولئك المجاهدين الاوائل الذين آثروا الموت على الحياة فصدقت فيهم مقولة ابي بكر الصديق

(رضي الله عنه) حين قال : (احرص على الموت توهب لك الحياة)) ولعلنا لا ننسى رجز عبد الله بن رواحة يوم معركة مؤته مخاطبا نفسه :[39]

اقســـــمتُ يـــــا نفـــــسُ لتَنزِلِنَّـــــه طائعـــــــــة اولا لَتُكرَهِنَّـــــــــــه
وطالما قد كنتِ مطمئنــة مالي أراكِ تكرهين الجنــة

رثاء الابناء :

يقول عبد الرحمن العتبي (ت228هـ) : ((ما عالج الحزن والمرارة في الاحشاء من لم يمت له ولد))[40] ويقول ابن عبد ربة : ((موت الولد صدع في الكبد ينجبر اخر الامد))[41] .

وقد سئل اعرابي : ما اجود الشعر عندكم ؟ قال : ما رثينا به اباءنا واولادنا ؛ ذلك انا نقولها واكبادنا تحترق))[42] .

وهكذا يرى من يقرأ ما نظم من شعر في رثاء الابناء ، فما اوجع قلب المرء مثل فقد احد ابنائه ، وربما تداعى جسد المرء حزنا فتناوبته العلل ، واطاحت به عاهة مثل عاهة العمى التي اصابت عيني الامير نجم الدولة ابي العباس احمد بن ابي الجبر[43] حين مات له ولد شاب في يوم عيد ، فوجد عليه حزناً وغمّاً وعمِيَ ، وقد رثاه في اكثر من قصيدة لعلّ من اكثرها تعبيرا عن توجع الاب المفجوع بفقد ابنه قوله[44]

لــبس الجنــودُ جديــدهم فــي عيــدهم ولبســت حــزن ابــي الحســين جديــدا
وودت لـــو حضـــر المصـــلى فـــيهم حّيـــاً وكنـــت المســـبت الملحـــودا
ايســـــرني عيـــــد ولـــــم أرَ وجهـــــه فيـــــه ؟ الا بعـــــدا لـــــذلك عيـــــدا
كيف المسرة لامرئ فقد الهـوى وحثا عليه جنـادلا وصعيـدا

اذن هو ينساق وراء دفق شعوري مأساوي جدده حلول العيد فكل ما فيه يحمل اليه احساسا بالفقدان والثكل والامنيات الضائعة ، وجديدهُ غير جديد الناس ، وصلاة العيد وهي الشعيرة المقدسة تضاعف حزنه ، وتتجلى عاطفة الابوة باسمى صور الايثار فيتمنى تبادل المواقع وهيهات ! اذ كيف يجتمع الضدان ، الفرح وفقد من نحب ؟! ، وفي استخدامه مفردة (الهوى) تجسيد للوعة الرجل الذي فقد الحب متلبسا بجسد ابنه الذي واراه الثرى ، ولعله تحاشى لفظة القبر ، واتى بلفظتي الجنادل والصعيد ليعبر عن الحاجز المادي الذي فصل بينه وبين ابنه ، ان يرى الموت ضرورة تمليها قيم المودة والحب لهذا الابن

مــن لــم يمــت حَزنــاً لمــوت حبيبــه فهـــو الخـــؤون مـــودةً وعهـــودا
مــت مــع حبيبــك إن قــدرت ولا تَعِــشْ مـــن بعـــده ذا لوعـــةٍ مكمـــودا
انســاه لا والله او ينســى إذا ركبَ الغصونُ الأورَقَ الغرّيـدا

هل هو يحاور نفسه بهذا المنولوج الداخلي ام يحاور احدا غيره يوصيه بالموت مع احبته ان قدر لارغبة في الموت ولكن نزوع الى الهروب من لوعة الفرقة وشدة الحزن ، ويأتي تساؤله الاستنكاري (انساه) وكأنه انتفاضة ملدوغ يؤكده بالقسم الذي يوليه على نفسه ، ولكي تأخذ المسألة بعدها في ذهن من يطلب اليه النسيان او ربما في ذهنه هو يستحضر مثالا محال الحصول ، وهو ان ينعكس ويتبدل احد نواميس الحياة فتركب الغصون الطائر الغريدا على عكس المألوف ، وهذا الاستخدام غير المألوف اعطى للموقف المطلوب بعدا متناهيا ، ومن الغريب انه سلك طريقة جاهلية [45] في تصوير تفجعه على فقد ابنه ، متخذا من وصف حال الظبية التي فقدت ابنها توصيفا لابراز حالته الوجدانية والنفسية [46] ، وهذه الحالة التشبيهية تذكرنا تماما برثاء ابي ذؤيب الهذلي لابنائه في قصيدته المعروفة [47] :

امن المنون وريبها تتوجَّعُ والدهر ليس بمعتبٍ منْ يجزَعُ

ومن الطريف ان يعود ليجعل المشبه به مشبها ويبحث له عن مشبه به فلا يجد سوى الصورة الادمية مشبها به فيقول :

فهناك أعلنتِ البغامَ كأنّها ثكلى أُصيبتْ فارساً صنديدا

فهل كان هو تلك الثكلى لابنها الفارس الصنديد ، وهل حين تأرجح الراثي بين العاطفة الغريزية والحالة العقلانية احال في الاولى الى الظبية وفي الثانية الى نفسه لا ليجعل منها المعادل الموضوعي ، بل ليرجح كفة الخسارة لمصلحة مرثيّهِ بفارق الادمية والفروسية والقوة ؟

ولعل صدق التجربة الشعورية لمعايشة الشاعر الحدث وقدرته على نقل التجربة حملني على الافاضة في الحديث عن هذه المرثية تحديدا[48] ولا اعني الصدق الحرفي ، ولكن الصدق في تجسيد المشاعر كما يشير الى ذلك بعض الباحثين قائلا[49] : ((فالصدق في التجربة ليس الصدق الحرفي في نقل الواقع الخارجي ؛ ولكن الصدق في تصوير المشاعر التي يثيرها هذا الواقع الخارجي)) .

وقد يكون هذا الابن صغيرا فيرى فيه ابوه الثاكل هلالا لم يقدر له ان يكتمل بدرا كما وصف ابو الفتح محمد بن محمد الاديب الكاتب ابنا له توفي وهو صغير [50] .

يا هلالا كنت ارجو منه ان يكمل بدرا
واري فيه تماما لسروري فاستسرا

وعلى الرغم من تقليدية التشبيه فان الجانب الانساني وما يفيض من مشاعر الحزن يجعلنا نأنَس اليه ، وجميل ما وصف به بعض الباحثين بكاء من يموت ابناؤهم وهو صغار فلا يجدون ما يرثونهم به من الصفات والقيم الخُلُقية ؛ فيعوضون عن ذلك بما يسمى ((بالاماني الضائعة التي كان الشاعر يحلم بها ، ويصبو الى ان يحوزها ابنه ، ولذلك يشعر بحسرة كبرى لان القدر لم يسمح له بذلك))[51] .

وهذا الرثاء يذكرنا رثاء بشار بن برد ابنه محمدا الذي توفي وهو صغير حين يقول [52] :

رُزِئـــتُ بنـــيَّ حـــينَ اورقَ عـــودُهُ والقـــى علـــى الهّـــم كُـــلُّ قريـــبِ
وقد كنت ارجو ان يكون محمـدُ لنا كافيا من فـارسٍ وخطيـبِ

فهذا يؤكد ان وفاة الابن الصغير تمثل وفاة الامال والاماني ، فضلا عن ان الشاعر الراثي تضيق امامه مساحة البث الشعري ((ورثاء الاطفال مركب صعب للشعراء ، فان الطفل لم يصب بعد مجدا يمكن ان يرقى من خلاله))[53] فلا يجد الاب الثاكل سوى بضعة ابيات يبث فيها حزنه الشديد وامنياته العاثرة ، ورغبته في افتداء فقيده بنفسه ، ولا يبعد عن هذا التصور ما قاله ابو الفضل عبد الرحيم بن احمد ابن الاخوة ، وهو يرثي ابنا له مات وهو طفل [54]

أبنـــيَّ لا تبعـــدْ ومَـــنْ تَـــكُ نْفسُـــهُ غرضـــا لراميـــةِ النوائـــبِ يبعـــدِ
قـــد كنـــت آمـــلُ أن تعـــيشَ بغبطَـــةٍ فتخالجتـــك يـــد المنايـــا مـــن يـــدي
جـاريتني فسبقت أنـت لموعـدٍ وودتُ لـو وتركتني حَرَضَا .. اعد لموعدي فأقيك
أنّي أمامَـك واردُ من شرقاتِ ذاك الموعـدِ

فلفظة (لا تبعد) التي استخدمها العرب بمعنى (لا تهلك) هي دعاء والتماس خائب بَدأَ به الشاعر الثاكل مقطوعته الحزينة ، وكأن الشاعر فيما قاله من آبيات كان يريد ان يبعد عن مباشرة لفظة (الموت) بذاتها فتعابيره (لاتبعد) ((رامية النوائب) (يد المنايا) (الموعد) (وارد) كلها تدور حول الموت ولا تقترب من المفردة ذاتها ، وبدا هذا الثاكل وكأنه في عراك مع الموت الذي وأد امنياته وغالبه على ابنه فغلبه وكأن الاثنين كانا يتباريان لمخاضة الموت فيسبق الابن اباه ، فيتعثر الاب في امنية اخيرة خائبة في افتداء ابنه وسَبْقِهِ الى الموت كما تمنى قبله الامير نجم الدولة ابن ابي الجبر ، ويبدو حضور هذا الطفل المرثي مستغرقا وجدان ابيه في سياق خطاب متوحد مع روحه .

اما بكاء البنات ؛ فمن الشائع المعروف ان العرب تأنف من بكاء البنات ، وتجد موتهن سترا لهن ، ولعل البحتري البدوي النزعة جسد هذه الفكرة وهو يعزّي احدهم بموت ابنته قائلا : [55]

والفتـــى مـــن رأى القبـــور لِماطـــا فَ بـــه مِـــن بناتِـــهِ ، اكْفـــاءَ
ولَعَمري ما العجزُ عنـدي الاّ أن تبيتَ الرجالُ تبكي النسـاءَ

ومع وجود هذه الفكرة الا اننا لا نعدم من كان يرفضها من القدامى ويستنكرها كما يتضح من قول شاعر جاهلي : [56]

رايت رجالاً يكرهون بناتِهـم وهنّ البواكي والجنوبُ النواصـحُ

وفي شعر القرن السادس وجدنا الشعراء يرثون بناتهم بلا حرج واذا لم يكن هناك الكثير من الصفات التي ترثى بها البنات ؛ فان مشاعر الاب الثاكل تأخذ حيزها الاكبر في مقطوعة الرثاء . هنا يبرز مثال في رثاء سبط ابن التعاويذي لإبنةٍ له صغيرة قائلا : [57]

ايّ نـــارٍ ضُـــرِمَتْ فـــي كبـــدي ... ومصـــابُ قَـــلَّ عنْـــهُ جَلَـــدي
ويـــدُ ناضـــلي الـــدهرُ بهـــا ... ضـــعفت عـــن رَدّهـــا عنـــكِ يـــدي
إن غـــدا محتكمـــاً فيـــكِ البلـــى ... فالضّـــنا محـــتكِمُ فـــي جَسَـــدي
أي صـــــون وجمـــــالٍ وتقـــــى ... وحيـــاءٍ جُمِعـــتْ فـــي ملحَـــدِ
بـــابي غائبـــةُ عـــن نـــاظري ... فـــي الثـــرى حاضـــرةُ فـــي خَلَـــدي
لأطيلَنّ مدى الغـمّ علـى ... صاحبِ العمرِ القصيرِ الامـدِ

يبدو من البيت الاخير ان هذه الابنة قد اختُرِمَتْ وهي في ميعة الصبا ، هذا العمر القصير الامد يقابله حزن طويل المدى من لدن الشاعر ، من البيت الاول تتجسد لوعة الاب الثاكل في مفرداته : نار ، ضُرِمَتْ ، كبدي ، مصاب ، والدهر يقاتله بيد تضعف يده عن صدها لذا سيكون الاستسلام سلبياً للراثي والمرثية ، هي في تحكم البلى فيها وهو في تحكم الحزن وتلبّسه به .

فيض من الصفات المعنوية التي يحسن بالأنثى ان تتحلى بها ، تلك كانت صفات فقيدته لكنّه اضاف اليها صفة الجمال وهي صفة مادية قلما تذكر عن موتى النساء ، وربما أباح له ذلك صغر سن المرثية ، ولعل المبرد كان مصيبا حين قال : ((احسن الشعر ما خلط مدحاً بتفجع)) [58] .

واذا كان ابن التعاويذي قد بكى ابنته دموعاً فان الاحدب المعلم[59] لا يرتضي الدموع الا ممتزجة بالدم وهو يرثي ابنته :

ولســـت بـــراضٍ بالبكـــاء بنّيتـــي ... عليـك الـى ان امـزج الـدمع بالـدم
فلـــو أنّ جَفنـــي دائمـــاً ببكائـــه ... علـى قـدرِ حـزن تسـتحقينه عَمِـي
وإني بمثلِ الكأس بعدكِ شاربُ فلا ... كمـا شـرب الماضـون مـن لـدُ آدم
بليت تلك العظام فإنهـا ... بقيّةُ جسمي لـم تدنّس بمأثـم

التأسي لا يكون الاّ بالمماثلة بقَدرِ الموت ، وهو الحقيقة التي تشمل كل البشر منذ آدم، والابناء بضعة الاباء وما يصيب البعض يصيب الكل غير ان هذا البعض او هذه المرثية تميزت بالطهر والعفّة ، وهما صفتان أليقُ بالانثى .

وقد فاجأنا نصٌ يتيم لامرأة ترثي ابنتها قائلةً :[60]

أقـــول ولـــم ابلـــغْ نهايـــة فضـــلها ... بكـــاكِ ويبكـــي الوالـــدُ المتنـــدمُ
تشـــير فـــلا يعيـــا الصـــوابُ برأيهـــا ... يعـــزّ علينـــا كيـــف تُنســـى وتعِـــدَم

وإن تـكُ قـد ماتـت لنـا اسـوةٌ بمـن مضـى قبلهـا فيمـا يُظـنُّ ويُعلـمُ
وفاطمةُ الزهراءُ بنت (محمد) –عليها سلام الله – ماتت (ومريمُ)

إن قراءة اولى للنص لا تنبئ عن مشاعر ام ثكلى ، وليس من اشارة واضحة لعاطفة الامومة المتأججة ، وكلُّ ما هنالك وصف لحزن الاب الباكي ، وامتداح للمرثية بصواب الرأي ، ثم التأسي عن فقدِها بمن هن خير منها ، فاطمة الزهراء البتول (عليها السلام) ومريم بنت عمران (عليها السلام) ، وهذا البرود العاطفي يناقض ما عُرف عن النساء من أنهنّ ((أشجى قلوباً عند المصيبةِ ، واشدهم حزناً على هالك ، لما ركّبَ الله – عز وجلَّ – في طبعهنّ من الخورِ وضعفِ العزيمة))[61] بخاصة اذا كانت المصيبة هي ثكل فلذاتِ الاكباد فقد قيل لا عرابيةِ مات ابنها : ((ما احسنَ عزاءك ، قالت : ان فقدي إياه أمّنَني كلّ فقدٍ سواه وان مصيبتي فيه هوّنتْ عليَّ المصائبَ مِن بَعدِه))[62] .

والملاحظ في رثاء الابناء بعامة ان البعد المأساوي يتركز في اكثر من موضع فموتهم فقد للامتداد الانساني الذي هو بحث عن الخلود وهو فقد للظهير والسند عند الكبر ، أي (القوة والحماية) ، وفقد الحبيب الذي فطر الاباء على حبّه ، ثم هو فقد البعض الانساني ، فالنطفة ، والكبد ، والعينان ، بضعة الانسان .

ويبدو ان من يعمّر من الشعراء يتاح له ان يرثي احفاده ، كما حصل لسبط ابن التعاويذي ؛ اذ وجدنا له رثاء في حفيده يقطر حزناً ، يقول فيه [63]

يـــا بـــأبي المخـــتلس المســـتلبْ عـــنّ لـــه ســـهمُ حِمـــامٍ غَـــرَبْ
وانترعتـــــــه للمنايـــــــا يـــــــدُ مغتالـــــةُ مـــــن حُجـــــرِ أم وأبْ
افديه من ريحانةٍ غضةٍ يا عـــاد هشـــيماً عودُهـــا المحتطـــبْ
قوتة اذهب جِريـا لهـا الموتُ فعادت كقضيبِ الذهبْ

هذه الرثائية الجميلة فيها احساس طاغ بالثكل والحزن ، فهذا الحفيد الصغير او هذه الريحانة الغضة كما اسماه جدّه منتزع انتزاعاً قسرياً من ذويه ، ولذا كثرت المفردات التي تجسّد الاستلاب القسري مثل ، المختلس ، المستلب ، انتزعته ، مغتالة ، فضلا عن تكرار الفاظ الموت بلفظها او بمعناها مثل : الحِمام ، المنايا ، ولعل الشاعر لم يدّخر وسيلة لابراز مشهدية الموت والاحتضار فاستخدم اللون ليس بلفظه ولكن بالكناية اللطيفة عنه كما وجدنا ذلك في البيت الرابع واعتمد الاضداد للتعبير عمّا لحق هذا الحفيد من تغيرات بين صحته وسقمه واحتضاره وموته فالشروق والغروب والبدر والسحابة هي تلوينات متغايرة ترسم بانوراما مأساوية وقد يلجأ الشاعر الى الفاظ الندب المباشر مثل قوله في البيت الاول (يا بأبى) او (ويلي) كما في هذا البيت :

ويلي عليه ما بلغت المنـــى منه ولا قضيتُ منـهُ أرَبْ

وقد لجأ الى تكرار المفردة في اسلوب المحاورة من جانب واحد مع هذا المرثي الصغير :

أبا علـي فرَّقتْ بيننـا دهياءُ لا يَعطِفُها مَنْ عَتَـبْ

(ابا علي) هذه الكنية المحببة الى نفس الجد الثاكل تتكرر في اربعة ابيات تستفز حزنه ولوعته فيما يشبه النواح لفرقة صنعها القدر المحتوم في معركة ازلية بين الحياة والموت كان الموت فيها هو الغالب :

غالبني فيك شديدُ القـوى والبطش ما غالب الاّ غَلـبْ

وهذا الاعتراف بقوة الموت الخِصم كفيل باحالة الرجل الى التسليم بقضاء الله وقدره ومحاولة التأسي بعدمية الحياة

حسبي فيك الله مـن فـارطٍ يـا طالـب مُـــدخرِ لـــي أجـــرُهُ مُحتســـبْ

الراحـةِ اخطأتهـا مالك من دنياك الاّ التعـب

رثاء الاقارب :

قد لا نجد الكثير من النصوص الشعرية في رثاء الاقارب ، ولكن ما وقع تحت ايدينا يشير الى عاطفة دفاقه ومشاعر صادقة قد لا ترقى الى مستوى رثاء الابناء ، ولكنها على اية حال توقفنا على لحظات صدق شعوري يضفي ابداعاً فنيا على تجربة الشاعر .

ووجدنا الاخ اكثر المرثيين حضوراً في الشعر ، وليست الاسباب بخافية ، وقد تتفاوت المشاعر وطريقة التعبير عنها ، ولكن الاواصر التي تربط الاخ باخيه عامة تحتم نوعا من الاحاسيس المشتركة التي تجمع الشعراء الراثين تجاه مرثييهم . فموت الاخ ضربة قاصمة لظهر اخيه ، وهذا ما نلحظه في رثاء سبط ابن التعاويذي لاخيه [64]

أخـــي ضـــامني منـــك الزمـــانُ وريبُـــهُ فمالـــك لا تحمـــي حِمـــاكَ وتنتخـــي

أخي لا تدعني للخطوبِ دريّـةً وكنتُ اذا استصرختُ يأتيك مصرخي

وفي هذا المعنى نفسه نجد الشاعر حيص بيص يندب أخاه [65]

فقـــدت أخـــي وكـــان أخـــي ظهيـــري علـــى الحـــدثان ســـماعاً لأمـــري

فقـــدت مهنـــداً عضـــباً جـــرازاً يقـــدّ بكـــل رائعـــةٍ ويفـــري

اذا ما شِمتُهُ لقراع خطب انا جـلا الغمـاءَ عـن وجهـي وصـدري

الباكي اذا فارقتُ خـلاً فكيف أخي وخالصتـي وأزري

ولا ندري لماذا لم يجد بعض الباحثين في رثاء حيص بيص العاطفة المنتظرة [66] فالشاعر حاول تصوير فاجعته في أخيه على وفق منظوره الخاص بكل ما يحمله من سِمَة

التبادي التي عرف بها وما يتبعها من ايثار للخشونة . وما نراه ان الرجل حاول اظهار الجانب البطولي في اخيه كما كان يحب ان يراه .

والاخ بعد ذلك هو الصاحب والخليل ، بل هو اكثر من ذلك ، كما نجد تأكيد حيص بيص في البيت الاخير ، وهو قرّة العين المرجوة كرماً وشجاعة كما يراه فخر الدين ابن هيبرة [67] :

ألا روّحـــا قلبـــي بصـــوت حمامـــةٍ تنـــوح علـــى غُصـــن الأراكِ وتنـــدب
تُرى فجِعتْ مثلي خليلا وصاحبـا وقرةَ عين كان يُرجَى ويُرهـب

ويبدو ابن هبيرة هذا رومانسيا في حزنه فنائحته ليست كباقي النائحات تعول وتولول بل هي حمامة تقف على غصن شجرة لتروح بصوتها عن قلبه الحزين .

والملاحظ في رثاء الاخ تكرار مفردة الاخ سواء كان بصيغة الخطاب كما لاحظنا ذلك في ابيات سبط ابن التعاويذي (أخي ضامني ، أخي لا تدعني ، أخي غير جفني) او بصيغة الغائب كما وجدنا ذلك في ابيات حيص بيص (فقدت أخي ، وكان اخي ، فكيف أخي) وربما كان هذا التكرار مشبها ترجيع الحمامة التي اراد ابن هبيرة استنطاقها الحزن على اخيه.

وجملة الامور التي يتجلّى بها الاخ المرثي تتمحور في القوة التي يستمد منها الراثي قوته وحمايته فضلا عن الفضائل والصفات المعنوية واهمها الشجاعة والكرم والنجدة في الملمّات .

وقد وجدنا في رثاء الجد قصيدة لسبط ابن التعاويذي لم نجد غيرها في شعر القرن السادس ، وهذا الجد هو جده لامه الشيخ ابو محمد بن المبارك التعاويذي الذي كان كفله صغيرا ونشا في حجره ، وغلب عليه نسبه ، ونعتقد أنّ هذا سبب كافٍ لتلك المشاعر الحزينة التي غلبت على ابياته وهو يبدأها بحكمة عامة قائلا: [68]

لكل ما طال به الدهر أمـد لا والد أبقى الردى ولا ولـد

في قوله (لكل ما طال به الدهر أمد) اشارة واضحة الى كبر سن المرثي ولعل الشاعر لم يتعمد هذه الاشارة لكنْ شعوره والجو النفسي الخاص الذي عاشه وهويرثي جده هو الذي أملى عليه هذه الحكمة ، ويستمر هذا المناخ الحكمي المفضي الى عتاب الايام التي لم تزل تنتزع الاحباب والاصحاب حتى يتنامى الى خطابٍ رثائيّ مباشر للمرثي .

يا بأبي النائـي البعيـد شخصـه مدّ اليك ولا نـــــأى مـــــزاره ولا بعـــــدْ
حادث الدهـر يـدأ كنت اذا جار الزمـان عضُـدي لـيس عليهـا قـودُ ولا أودْ فـاليوم لا جارحةُ ولا عضُـدْ

وكأن هذا التنامي في اجواء المرثية محاولة من الشاعر لتكثيف مشاعر الحزن لديه واستفزازها بما يليق بهذا الجدّ الذي تبناه مما يكشف عن حالة طفولية تتلبس الشاعر حين يحوّل هذا الخطاب الى عتاب للميت :

مالك لا ترق لي مِنْ زفرةٍ مالك لا يلعب اثناء الفؤادِ والكَبدْ
ترأب احوالي ولا مالك لا تصلحُ آراؤك منها ما فسدْ
ترحم ذلَّ موقفي وكنت أحنى والدٍ على ولدْ

فالتكرار الملح في قوله مالك لا ترق ، مالك لا ترأب ، مالك لا ترحم ، يبدو تشبثاً طفولياً بشخص المتوفىّ ، وتعميقاً لفكرة الاحساس بالفقدان ولابد لهذا المثال ان يؤبّن بما يتناسب وكبر سنّه وعلوّ مقامه عند حفيده فهو كوكب في السماء ، وهو رجل مؤمن عابد تحفّه الملائكة وهو يتعبد .

ما غاب في الترب ولكنْ كوكبُ رقى الى جوّ السماء وصعدْ
اوحش منه مرتقى دعائه وملتقى الاملاك كلما سجَدْ

وقد رثي بعضهم قريبه بالنسب ببيتين من الشعر نتبين منهما ان المرثي كان يصل الراثي بعطاياه اذ يقول الراثي[69]

قرّباني ان لم يكن لكما عقـ رُ الى عقْرِ قبره فاعقراني ن
وانضحا من دمي عليه فقد كا دمي من نداهُ لو تعلمان

وللاسف لم نجد في هذا الشعر رثاءً للاب او الام او الاخت .

رثاء الخلفاء ورجال الدولة واكابر الناس :

جعل قدامة بن جعفر الرثاء طبقات فالملوك والرؤساء اول من يرثيهم الشاعر ، ويليهم الوزراء والقواد ، ثم يليهم عامة الناس[70] .

ولا شك ان الشاعر يحاول ابراز افضل ما في المرثي من صفات حقيقية او مفترضة فما بالنا اذا كان المرثي خليفة او وزيرا او رجلا من رجال الدولة .

وللخليفة خصوصية تجعل الشاعر يحاول ابراز الصفات التي ترتبط وتليق به مدحا او رثاءً ، بخاصة الصفات ذات الطابع الاسلامي فضلا عن الصفات المعنوية الاخرى[71] وفي العصر العباسي بعامة كان لابد من ركائز يرتكز عليها الخليفة ليدعم ادّعاء العباسيين بشرعية خلافتهم ، وكان التركيز على الجانب الديني ، وعلى كون الخليفة وليا لامور المسلمين اهم دعائم ادعائهم هذا ، ولم يكن هذا بالنهج الجديد منذ تحول الخلافة الاسلامية الى وراثية ، فقد دأب خلفاء بني أميّة قبلهم ومن شايعهم من الشعراء على ابراز هذا الجانب [72] .

وربما كان امتلاكهم اثرين من آثار الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وهما البردة[73] والقضيب[74] والظهور بهما في المناسبات محاولة لاثبات انتمائهم الى البيت الهاشمي والقرابة من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهذا ما اكده الشعراء في مدائحهم ومراثيهم ، فهذا ابو نزار الحسن بن ابي الحسن الملقب بـ(ملك النحاة)[75] يرثي الخليفة المسترشد بالله العباسي[76] :

مَــن النــافضُ البيــداءَ والليــلُ دامــسُ عليـــه كلـــوحُ ظـــاهرُ وقطـــوبُ
يغــارُ اذا لــم تهجــر الشــمسُ ضــوءها ولـــم تبـــدُ منهـــا رنّـــةُ ونحيـــبُ
نعى من بني العباس أروعَ ماجدٍ كفاهُ تراثاً بـردةُ وقضيـبُ

اذن هي اشارة الى المكانة الدينية للخليفة المرثي تعظيماً لقدره توصل اليها الشاعر من خلال تأكيده في كلام تقريري معاد ومكرر على ان الخليفة من بني العباس ورثة البردة والقضيب ، وقد حاول الشاعر ان يجسد عنصري التمجيد والتهويل في البيتين الاولين ، فالبيداء ، والليل الدامس ، والمخبر الذي تحمل هيئته هول المصاب بعبوس مؤكد بالقطوب جاءت لتعميق حالة الحزن وتعظيم حجم المصاب ويبدو هذا التهويل والتعظيم مطابقا لرؤية ابن رشيق القيرواني اذ يرى ان ((سبيل الرثاء ان يكون ظاهر التفجع بيّن الحسرة مخلوطاً بالتلهف والاستعظام ان كان الميت ملكا او رئيساً كبيراً))[77] وقد لا يكون الشاعر موفقا تماما في التعبير عن شدة الحزن حين استخدم الفعل (يغار) في البيت الثاني ، وليس الموقف موقف غيرةٍ بقدر ما هو احساس الحزين المتفجع الذي يريد ان يشركه كل ما حوله حالة الحزن حتى الشمس حين ارادها ان تهجر ضوءها وتنتحب اعلانا عن حزنها ، هذه الصورة المأساوية تبدو ناقصة جزئية امتزج فيها الاخبار بمحاولة التصوير الفني ، لكنها قصرت عن اثارة عاطفة الحزن .

وقيمومة الخلفاء العباسين على الدين على انهم الورثة الشرعيون لخلافة المسلمين فكرة كرسها الشعراء في مدائحهم ومراثيهم كما نجد هنا في رثاء الشريف علم الدين ابن الاقساسي العلوي الكوفي[78] للخليفة المستنجد بالله [79] :

مِـــنَ الرّعـــانِ التـــي لـــولا شـــوامخُها ما كـان لـلارض مـن صـدْفٍ ولا وتَـدِ
القائمين بآمـر الله دأبهُـمُ حياطةُ الدين كالحاني على الولدِ

واذا كان الشاعر قد وفق في استخدام مفردات مثل الرعان ، شوامخها ، صدف ، وتد ، للدلالة على رفعة الشأن والسمو والثبات والقوة فلا نجده كذلك في تشبيه حرص الخلفاء على الدين يحرص الاب على الابن ، مع ما اراد ان يجسده من معاني الحنوّ والرأفة ، وعلى الرغم من المبالغة التي اعتمدها الشاعر في تصوير عظم البلاء الذي مارت واهتزت له الارض وكسفت الشمس :

ومـــارت الارضُ إعظامـــاً لموقعِـــهِ مَـوراً غـدا راجفـاً بالسـهل والجلَـدِ
واضحت الشمسُ وهـي كاسفـةُ كأنما طرفُها مغضٍ علـى رمـدِ

فقد كشف سريعا عن انخراطهِ في سلك شعراء الخلفاء العباسيين الذين دأبوا على التعبير ((في مراثيهم لهم عما اصاب الخلافة والاسلام من محن بموتهم جامعين بين التعزية في الخليفة السابق والتهنئة للخليفة اللاحق، ومعلنين ان الله انقذ به الامة من الفوضى والدمار، وعصم

الاسلام من الضعف والانكسار)) [80] فهو لم يلبث ان استعاض عن الحزن والالم لفقدان المستنجد بالله بمديح الخليفة الجديد المستضيء بأمر الله بتخلص لطيف :

فـــان تعـــاظَمَ رزءُ يـــومَ مصـــرعِهِ فقـد أتانـا مـن النعمـى بـأيّ غـدِ

وما تقول وقد قامت سعادتـهُ لنا عن الوالدِ المحمودِ بالولـدِ

واذا كان ابن الاقساسي قد اعتمد المبالغة لاظهار الحزن على الخليفة المستنجد بالله ، فإن الابله البغدادي لم يكن مبالغا وهو يتقدم بتعزية الخليفة المستنجد بالله بوفاة والده الخليفة المقتفي لامر الله[81] .

عزاءً وان اضحى العزاءُ حراما مضىَ منْ حمى سرب الانام وحامى

فقد عرف عن الخليفة المرثي شجاعته وحرصه على حماية بغداد ، وبرزَ موقفه واضحا في حصار السلطان السلجوقي محمد شاه لها سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة للهجرة[82] وهذه هي الشجاعة المطلوبة لان لها هدفا يسمو على اهداف الشجاعة عند غيره ، وهي كما اشار اليها الماوردي ((الشجاعة المؤدية الى حماية البيضة وجهاد العدو))[83] .

ويمضي الشاعر في ذكر صفات المرثي المعنوية المعروفة ، السؤدد ، والرفعة ، والذمام ، والفروسية ، والعدل ، وحسن الرأي والتدبير ، والمؤمن المواظب على فروضه مستخدماً التكرار للفظة (قضى) التي بدت وكأنها الى الاخبار اقرب منها الى الرثاء :

قضـى ومضـى أورى الـورى زنـد سـؤددٍ ومجـــداً وأوفـــى ذمـــةً وذمامـــا

قضـــى غـــامر الـــدنيا وغـــامرُ أهلهـــا عطـــاءً كجمّـــات الســـيول جمامـــا

قضـــى قائـــد الخيـــل العتـــاق ســـواهماً تخـــال نعامـــاً او تَظـــن نعامـــا

قضـى نحبـهُ مـن كـان بالعـدل ملهمـاً وبـالجيش يـردي المـارقين لُهـا مـا

قضى ملكُ زم الزمـان برأيـهِ وَرَمَّ اموراً كُنّ قبلُ رِماما

وحين نبحث عن مشاعر الراثي تجاه المرثي لا نجد شيئا من ذلك بل لا يتكلف ذكر نفسه ضمن المجموع الا في البيت التاسع حين يتخلص من العزاء ليدخل في مديح الخليفة المستنجد بالله ابن الخليفة المقتفي واجداً فيه العوض والبديل :

لئن جَّبت الايامُ غارِب مُلكـهِ لقد عوّضَتنْا غارباً وسناما

وكان الشاعر حريصا على ان يجانس بين لفظة غارب التي هي بمعنى زائل وماضي و(غاربا) التي تعني الكاهل ، وهو ما بين السنام والعنق اشارة الى زوال ملك الاول ومجيء الثاني الذي يتحمل اعباء الحكم كما يتحمل كاهل الجمل اعباء ما يُحْمَلُ عليه .

اما في رثاء الامراء من اولاد الخلفاء ، فقد انفرد الحيص بيص وحده بمرثيتين احداهما لولد الخليفة المسترشد بالله[84] ، والثانية للامير ابي الحسن بن المستظهر [85] في رثاء ابن الخليفة اعتمد الشاعر التهويل ايضا للتعبير عن كمية حزن مفتعل .

نبـــأ عـــاد لـــه الصـــبح دجـــى وذعافـــا ريـــق المـــاء الـــزُّلالِ
جـــلّ ان يُبكَـــى دموعـــاً فجـــرت أعـــيُنُ الحـــيّ بمُحْمَـــرٍّ مـــذالِ
وانثنـــت مـــن حَـــزَنِ الـــدهر بـــه غـــررُ الامـــالَ ســـوداً كالليـــاليِ
وعلا عن نُدبةٍ مِن بشرٍ فرثاه المجدُ مفهوم المقـالِ

فالصبح انقلب ظلاما والماء الزلال صار سماً قاتلاً وبكى الحيّ دماً والى غيرها مما نراه من مبالغات لا تستفز المشاعر بقدر ما تشعر القارئ بهذا التهويل الكاذب الذي سينتهي حتماً الى حالةٍ تعويضية لا يمتنع معها السلوّ والتأسي والعزاء بقول الشاعر نفسه :

قسماً لولا الامـامُ المجتبـى باقياً لـم يلف قلب لك سالِ

ومن الكنايات اللطيفة التي استخدمها الشاعر هنا (مُحَمرّ مُذال) كناية عن الدم من القصيدة ذاتها مغرقاً في تشبيهات تقليدية لابراز الصفات المعنوية او المادية للمرثي فهو البحر كرماً والجبل قوة وشموخاً والبدر جمالا وكمالاً

مـــا ظننـــت المـــوت يمضـــي بأســـه وســـطاه فـــي بحـــورٍ وجبـــالِ
لا ولاخلتُ الثرى من فوقـهِ ان يجنّ البدر من بعدِ اكتمـالِ

وهكذا اتمضي بقية الابيات في تأبين يضمن جنان الخلد للمرثي :

شرفت نفسك عن دار الفنـا لنعيم الخلد من غيـر زوالِ

اما في رثاء الامير ابي الحسن فإنّ العزاء حاضر وهين وان زعم الشاعر ان العزاء عزيز :[86]

أمـــا اذا ســـلم الامـــام الاعظـــمُ وســـليله دقّ الجليـــلُ المعظَـــمُ
عـــزّ العـــزاءُ وهـــان حـــينَ بقيتمـــا فالمجـــدُ بـــاكٍ طرفـــهُ متبســـمُ
وبقاء شمس الصبح يحدث سلـوةً فينا اذا بدرُ هوى او أنجُـمُ

واذا ربطنا الحدث التاريخي[87] بمرثية الامير تبين لنا لماذا يصغر حدث موت الامير ما دام الخليفة وابنه سالمين ، وعلى الرغم من محاولة الشاعر محاباة الخليفة الا انه عاد واسترسل في ذكر فضائل المرثي التي لا تعدو الكرم والشجاعة واضاف اليها الفصاحة قائلا :

وممنعُ الاقوال يحصرُ بعد مـا نطق البليغةَ والفصيحُ يُجَمجِمُ

اما الوزراء ورجال الدولة الاخرون وأكابر الناس فقد جرى التأكيد على الصفات المعنوية في رثائهم وموقعهم . ولعل أوفر الوزراء حظاً من مراثي الشعراء في القرن السادس هو الوزير عون الدين بن هبيرة (ت560هـ)[88] ومن اجمل هذه المراثي مرثية نصر النميري[89] :

ألمـــمْ علـــى جـــدثِ حـــوى تـــاج الملـــوك وقـــل ســـلامُ
واعقـــر ســـويداء الضـــمير فلـــيس يقنعنـــي الســـوامُ
فـــاذا ارتـــوت تلـــك الجنـــا دل مـــن دموعـــك والرغـــامُ

فأقِمْ صـدور اليعمــلا تِ فبعد يحيى لا مقــامُ

لقد اقتضت دواعي الوفاء من الشاعر وقفة على جدث المتوفىّ نادبا متألماً معبراً عن مشاعر صادقة ، ولكن يبدو ان وقفته تلك كانت متعجلة بعض الشيء ، فهو قد رسم لها منذ البدء الا تطول إلا بقدر إلمامةٍ تستنزل دموعه ليرحل بعدها عن ديار لم يعد ممدوحه على قيد الحياة فيها ، وهو يعترف ان سبب بقائه في بغداد هو كرم الوزير معه وعطاياه الكثيرة .

يأبى لـي الاحسـان ان انساك والشيـمُ الكـرامُ

وربما كان الحكم على عاطفة الشاعر يبدو تخبطاً في دهاليز مظلمة ، فالعاطفة مخزون انساني في ضمير الشاعر وقلبه لا يعلمه الا الله ، ونعتقد ان القدرة على الاقناع بصدق التجربة هو ما ينبغي لنا البحث عنه لانه ذو علاقة وطيدة بالجانب الفني الذي يجب التأكيد عليه دون تعسّف وغلواء في اقتطاع النص من ظروفه الانسانية حيثما عرفت ، وما يَتَرَسّم لنا أنّ عاطفة الشاعر استفزت بظرف التجربة المكانية (وقفة القبر) ، واستطاع ان يعبر عنها بصدق فني مقنع بالصدق الشعوري الذي تأرجح بين الشد والتراخي من بكاء ورغبة في الرحيل ثم تذكر عطايا المرثي وصفاته ثم الحكمة المأساوية السوداء المفضية الى مبالغة كرسها احساسه بقيمة الفقيد .

ما متّ وحـدَكَ يـوم مُ تّ وانمـا مـات الانـامُ

ونجد لسبط ابن التعاويذي مرثية جميلة في الوزير جلال الدين ابي المظفر هبة الله بن محمد البخاري تقع في ثمانية وسبعين بيتا يبدأها بتساؤل استنكاري باستحالة العيش المنعّم بعد المرثي[90] .

اتظننـــي مـــا عشـــت انعـــم بـــالا ؟! هيهـــات ظِـــلّ العـــيش بعـــدك زالا

غـــادرتني عـــرض النوائـــب ألتقـــي منهـــا بصـــدري أَســـهما ونصـــالا

وحدي على ان الرجالَ كثيرةُ حولي وما كلُّ الرجال رجـالا

وعلى الرغم من المبالغة التي يتعّمدها الشاعر لاظهار حزنه فإن هذه (الانا) التي تمثل مصلحة الشاعر تظهر جليّة بين التوجع والوجل والخوف من جفوة اهل الزمان :

أنـــا رهـــنُ مظلمـــةٍ بحفرتـــك التـــي ضـــاقت فـــلا ضـــاقت عليـــك مجـــالا

متوجّعُ وجِلُ وانـت فـي دارٍ تجاورُ منعماً مفضـالا

واذا كان الشاعر رهين تظلم الى قبر المرثي فلأنه كان ملاذه الامن الذي أمّنَ عيشه وكفاه جفوة الاخرين ، هذا التظلم يقوده الى مقارنة تفضي لمصلحة المرثي ؛ فهو الافضل حالاً حياً وميتاً وكما يقال ((ان الشجا يبعث الشجى)) فقد ذكره موت المرثي فراق كل من كانوا يصدقونه المحبة والاخوة :

مـــــالي وللســـــراء بعـــــد معاشـــــرٍ صـــــدقوا هـــــوى فتقـــــاربوا آجـــــالا

زُهْـــــرٍ أودّع كـــــلّ يـــــوم مـــــنهمُ قمـــراً وأودع فـــي الصـــعيد هـــلالا

إخوانُ صدقٍ شرّدوا بفراقهم نومي وكانوا للسرور عقـالا

ونحس بتشاؤم الرجل وسوداويته وهو يحاول الربط بين حميمية العلاقة بينه وبينهم من جهة وبين تقارب آجالهم من جهة اخرى ، فيبكيهم ويندبهم ندب الصديق اصدقاءه الحميمين ، لكن موت الوزير البخاري يبقى المصاب الجلل الذي يعز العزاء معه .

لـــم تقنـــع الايـــام لا قنعـــت بـــأن نســـفت بحـــوراً مـــنهم وجبـــالا

حتى رمتني في الوزير بحـادثٍ عزّ العزاءُ عليّ فيـه منـالا

ويسترسل الشاعر في تعداد مناقب المرثي من كرم وشجاعة ودين وعلم ونجدة ونخوة وكل ما يمكن ان يصنع الرجل المثال من صفا ت معنوية ، وربما كان لرغبةٍ من الشاعر في الافاضة بتأبين يليق بالرجل اثره في طول القصيدة الذي اوقعه بشكل اوبآخر في التكرار .

وتبدو عبارة الامير شبل الدولة ابي الهجاء مقاتل بن عطية البكري اكثر رشاقة وهو يرثي الوزير السلجوقي نظام الملك[91] :

كـــان الـــوزير نظـــامُ المُلْـــكِ لؤلـــؤةً يتيمـــة صـــاغها الـــرحمنُ مـــنْ شـــرَفِ

عزّت ولم تعرفِ الايام قيمتهـا فردّها غيرةً منهُ الـى الصـدفِ

فبقدر ما تحوي مفردة (لؤلؤة) هذه من معنى قيمي معروف فهي بالقدر نفسه توحي بالندرة الجمالية التي كثيراً ما تشبه بها النساء ، وربما اراد الشاعر ان يختصر بهذا التشبيه صفات الرجل المثال في المرثي . ولعلّ الوزراء كانوا أوفر حظاً من الخلفاء من خلال كميّةِ الشعر التي وصلتنا [92] .

اما رجال الدولة وأكابر الناس فلو بحثنا عن المدائح التي قيلت فيهم لجمعنا كمّاً لا يستهان به منها لكننا لانجد إلا اقل القليل من مراثيهم ولا نبالغ اذا قلنا ان الحيص بيص كان صاحب هذا القليل منها بلا منازع ، فقد رثى عدداً منهم ممّن تربطه بهم علاقات مودّة وكانوا يغدقون عليه عطاياهم منهم دبيس بن صدقة [93] فقد رثاه بقصيدة تقع في تسعةٍ وخمسين بيتاً مطلعها :[94]

هبني كتمتُ لواعـج البـرُحاءِ فمن المكتمُ عبرتـي وبكائـي

وصف فيها مشاعره الحزينة ثم ذكر مناقب المرثي ، من اخلاق وكرم وشجاعة ، وكيف كانت نهايته ان حلّ برمس لا يتحرك منه ولا يفارقه مثله مثل كلّ الموتى يتلطخون بالصديد بعد ان كانوا يتضمخون بالمسك . والقصيدة من القصائد الجميلة ذات اللغة العالية والصور الجميلة وكان يمكن ان تعدّ من قصائد الرثاء المتميزة لولا ان الشاعر شابها بتهوين المصاب على نفسه حين وجد البديل في شخص ابن المتوفىّ .

ولقد شفى نفسي وهوّن وجدها خَلَفُ العلى وبقيـةُ الكرمـاءِ

ثم ينطلق ليتحول الى مديح الخلف الجديد.

كما رثى الامير عنتر بن ابي العسكر[95] واثنى على اخيه المهلهل بقصيدة مطلعها[96] :

اسى وسرورُ ناصِرُ ومُخَذّلُ اتاحهما لي عنترُ ومهلهلُ

ومن هذا المطلع نتبين حرص الشاعر على الجمع بين الرثاء للميت والمديح لاخيه ، وهذه صيغة جديدة في الجمع بين الرثاء والمديح ونحب ان نختم هذا المبحث بهذه الابيات لدبيس المدائني [97] يؤبّنُ فيها ثقة الدولة ابن الدريني[98] احد اركان دولة المقتفي لأمر الله :

قد قلتُ للرجلِ المولّى غسلَهُ هلاّ اطاعَ وكنتَ من نُصحائِهِ
جنبه ماءكَ ثم غسّلْهُ بما تُجريه عينُ المجدِ عند بكائِهِ
وأزل أفاويه الحنوطِ وطيبهِ عنه وَحنّطْهُ بطيبِ ثنائِهِ
ومُرِ الكرام الكاتبين(99) بحملهِ أو ما تراهم وُقَّفاً بإزائِهِ
لا توهِ اعناقَ الرجال بحملهِ يكفي الذي فيهنّ من نعمائِهِ

ونجد في هذا التأبين شيئا من الابتكار لم نعتده لدى الشعراء الاخرين بدءاً من خطابه للقائم على غسل المتوفى ، ومحاولته ابراز الصفات المعنوية له بصور قائمة على الموازنة بين المادي والمعنوي ، فعين المجد تبكي وبكاؤها يكون غسولا بديلا للماء وطيب ثنائه يمكن ان يكون بديلا مكافئا ومغنياً عن كل انواع الحنوط والطيب .

رثاء النساء :

كنا ذكرنا رأي النقاد القدامى من ضيق مساحة الصفات التي يتحرك من خلالها الشاعر للندب او التأبين او التعزية[100] بوفاة النساء وربما كان هذا الضيق سببا في قلة مراثي النساء ، والتركيز على بعض الشخصيات النسائية ، منهنّ على سبيل المثال زوج الخليفة الناصر لدين الله [101] فقد رثاها سبط ابن التعاويذي بقصيدة تقع في (47) بيتاً ومن الغريب ان تكون المقدمة نسيبا بكائياً :[102]

قفوا تعجبوا من سوء حالي ومن ضرّي فمن زفرةٍ ترقى ومن دمعةٍ تجري
وقد كنتُ قبلَ اليوم جَلْداً وإنّما رمتني يد احال الهوى ما كنتَ تعهدُ من صبري
الايام فيمن أحّبهُ بسهم فراق جاء من حيثَ لا أدري

تمتد هذه المقدمة المليئة بالشجن لتكون سبعة عشر بيتا أي ثلث القصيدة تقريبا بايقاع بطيء من البحر الطويل وبلغة رصينة نأى بها الشاعر عن الزخرف اللفظي المصطنع من جناس وطباق وغيرهما ومن فنون التحسين البديعي الذي كان سمة من سمات العصر ، ودونما تمهيد ينتقل الشاعر الى الرثاء مؤبناً المرأة :

أتتها المنايا وهي في ثوب غبطةٍ فتبّاً لمسرور بدنياه مُغترِّ

وتثير لفظة (تباً) في عجز البيت تساؤلنا فهل كان هذا الدعاءُ بالتبّ والقطع على من يُسرُّ ويغترّ بدنياه متلائما مع الشطر الاول من البيت وتحديداً مع جملة (وهي في ثوب غبطةٍ)؟ لا نظن ذلك ، ولابد للشاعر ان يبّين مكانة هذه المرأة وعزّتها في اهلها :

فلـم يُغنهـا مـا طـافَ حـول خبائهـا ... مـن السّـمهريّ اللّـدْنِ والجحفل المجْـرِ
ولـو قورعـتْ حمـرُ المنايـا وسـودُها ... بمرهفـةٍ بـيضٍ وخطيّـةٍ سُـمرِ
لقـارع عنهـا بالصـوارم والقنـا ... أبُ نافـذُ السـلطان مُمتَثَـلُ الامـرِ
ولئن غادرت قصر الخلافة موحشاً ... فكائنْ لها في جنة الخلد من قصرِ

فهي ابنة سلطان نافذ الامر وزوج الخليفة لكنّ الموت قدرُ لا يقارعُ ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الموتُ حالة استبد ال بالافضل (القصر في جنة الخلد) ، واذا كانت المرثية قد ضمنت قصراً في الجنة فقد ضمنت اثراً دنيويا من مناقبها من تقى ، وكرم وعلو قدرٍ

فللهِ مـا اسـتودعْتَ يـاقبرُ مـن تقـىً ... ومـن كـرم عـدٍّ ومـن نائـل غَمْـرِ
ثوى بك من لو جاوز النجم قدره ... لزادت به الافلاك فخراً الى فخرِ

ولا ندري لماذا استخدم الشاعر صيغة المذكر في البيت الاخير اعلاه وكان بامكانه استخدام صيغة المؤنث دون ان يختلّ وزن البيت ويبلغ الرجل قمة المبالغة في تمجيد المرثية حيث يحوّل قبرها الى ما يشبة الركن والحجر وهي من مقدسات المسلمين ، لابل انه يوقف الزمن عنده ليجعل الدعاء مستجاباً فكلّ لياليه ليلة القدر :

نمـرّ عليـه خاشـعين كأننـا ... مررنـا علـى الـرّكن المقبّـل والحجـرِ
لنا دعوةُ من حولـه مستجابـةُ ... فكلُّ الليالي عنده ليلـةُ القدْرِ

وما كان ينبغي للشاعر هذا التجاوز الذي ان سكت عنه الخليفة يومها فلن يسكت عنه من يقف أمام النص ؟

ويقف الشيخ ابو الفرج ابن الجوزي[103] أمام تربة أمّ الخليفة الناصر لدين الله وقفة تأملية لا تخلو من غموض محاط بجوٍّ من التحليق في عالم صوفي لا ندري ايحاءاته وهو يقول [104]

شـقينا بـالنوى زمنـا فلّمـا ... تلاقينـا كأنّـا مـا شـقينا
سـخطنا بعـد مـا جنَـتْ الليـالي ... فمـا زالـت بنـا حتـى رضـينا
سـعدنا بالوصـل وكـم شـقينا ... بكاسـات الصـدود وكـم رُوينـا
فمن لم يحيى بعد الموتِ يوماً ... فانّا بعد ما متنا حيينـا

وقد حشد كمّاً من الفاظ التضاد مثل الشقاء وعدم الشقاء والنوى والتلاقي والسخط والرضى ، والوصل والصدود ، والحياة والموت ولأننا لا نعلم ان ثمة علاقة خاصة بينه وبين المرثية لذا لا نجد تفسيراً الاّ انها حالةُ تأملية واعية املتها لحظة وقوفه على تربتها .

وقد تتحول ابيات الرثاء الى مدح لمن يوجه اليه العزاء ليس للمرثية نصيب منها فهذا الحيص بيص يعزّى زعيم الدين يحيى بن جعفر[105] عند موت بعض نسائه[106]

يـــا آل جعفـــر الفيّـــاض جـــودكم ... لـو انصـف الدهرُ لـم ينقص لكم عددُ
فـــيكم علـــى قســـوة الايـــام مرحمـــةُ ... ومـــنكمُ يســـتفادُ الصـــبر والجلـــدُ
فمـــا بـــرحتم وريـــح الخطـــب عاصـــفةُ ... طـــوداً صـــعوداً نـــداه مثعـــبُ صَـــعَدُ
تلـــين لله والاخـــوان فيـــه وللـــ ... ـعافى ويخشى سطاك السيف والاسدُ
واعلـــم وانـــت علـــيم انهـــا عَـــرَضُ ... ومـــا عـــن الله ربِّ العـــرشِ ملتَحَـــدُ[107]
فما وجدْتَ لخطبٍ جلّ مِنْ ألمٍ ... الاّ وعندي اضعاف الذي تجـدُ

فالجود والرحمة والصبر والجَلَد والطود الصعود واللّين والسطوة الفاظ حشدت لاسترضاء ممدوح وليس لتعزية رجل فقد امرأته ولعله اراد الاستدراك في البيت الخامس فما وفق حين جعل هذه المرأة المتوفاة او موتها مجرّد عرضٍ زائلٍ ، واقترب اكثر في البيت الاخير ليدخل في مبالغة تبدو حمقاء اذ يتضاعف حزنه عن حزن الرجل المعزّى فما هذا التنامي في كمية المشاعر المفتعلة سوى ارضاءً له .

ولم نجد للابله البغدادي شيئاً في رثاء النساء سوى قصيدة بسبعة عشر بيتا في رثاء إبنة علم الدين الركاب سلار[108] يبدأها بسخط على الدنيا ومن يرتجيها [109]

ألا تبـــــاً لـــــدنيا نرتجيهـــــا ... لقـــد خابـــت وخـــاب المجتـــد يهـــا
متـــى انتبهـــتْ وقـــد رقـــدتْ خـــداعاً ... فلـــم تخمـــل ببقظتهـــا بنيهـــا
ســـلِ الايـــام مـــا فعلـــتْ بكســـرى ... وقيصـــر والقصـــورِ وســـاكنيها
اما استدعتهمُ للمـوتِ طـرّاً ... فلمْ تدعِ الحليمَ ولا السفيهـا

هذا الافتتاح بلفظة (ألا) يبدو استقطاباً للاسماع مع هذا الايقاع الجميل للبحر (الوافر) المقفى بالهاء المفتوحة ، مع التصريع في البيت الاول وحرص الشاعر على ان يحشد الفاظ التضاد اللغوي ، انتبهت ورقدت ، وتخمل ، بيقظتها ، الحليم ، السفيه .

وتستمر الابيات بهذه الطريقة التي ان جاز لنا سَنُسَمّيها الحكمة السوداء وحين لم يبق ما يقوله عن خداع الدنيا وتنكرها لبنيها خلص الى تأبين الفتاة .

ومـــا هالنـــا شـــمسُ أهالـــتِ ... عليهـــا التُـــربَ أيـــدي دافنيهـــا
قضـــتُ فتجلّـــت الحـــور ابتهاجـــاً ... وَزُيِّنـــت الجنـــانُ لتجتليهـــا
ولا والله لم تكتـبْ عليهـا ... سوى الحسنى أناملُ كاتبيهـا

فاستخدم الفعل (هال) للتهويل وجعل المرثية شمسا وجانس بين (هالنا و (أهالت) ثم ضمن لها الجنّة) في البيتين التاليين ، وطفق فيما بقى من ابيات يعدد مزاياها فهي مثل غيرها من المرثيات امرأة حصينة ، وصاحبة معروف وهي عفيفة ، وهي كريمة [110]

رثاء آل البيت :

لم نجد للاسف – في رثاء آل البيت سوى قصيدة واحدة في ديوان سبط ابن التعاويذي تقع في خمسة وسبعين بيتاً [111] تبدأ بمقدمة في النسيب تستغرق خمسة عشر بيتا اولها :

أرقـــتُ للمـــع بـــرقٍ حـــاجريّ تـــألّق كاليمـــاني المشـــرفيّ
أضـــاء لنـــا الاجـــارع مُسْـــبَطرّاً وعـــاد ســـناه كـــالبيضِ الخفـــيّ
كأنّ وميضهُ لمـعُ الثنايـا اذا ابتسمتْ واشراقُ الحَلِـيّ

نجد ابن التعاويذي في هذه المقدمة قد حشد ما استطاع حشده من ألفاظ الشروق واللمعان ، اللمع ، والتألق ، اضاء ، سناه ، وميضه ، لمع ، اشراق ، أليس ملفتاً للنظر وجود هذه الالفاظ كلها في الابيات الثلاثة الاولى ، الا يمكن ان تكون مرتبطة في ذهن الشاعر بانوار بيت النبوة بخاصةٍ اذا كانت مرتبطة بفعل التذكر :

فأذكرني وجوه الغيد بيضـاً سوالفُها ولـم أك بالنَّسِـيّ

وانثيال الذكريات المقترن بالاسى والحزن على زمن الشباب والصحة والقوة مقارنة بزمن الشيخوخة وفراق الحبيبة والدموع والبكاء على اطلال الحبيبة :

أجـــاب وقـــد دعـــاني الشـــوق دمعـــي وقـــدماً كنـــتُ ذا دمـــع عيـــيّ
وقفـــت علـــى الـــديار فمـــا أصـــاخت معالمهـــا لمحتـــرقٍ بكـــيّ
اروّي تُربها الصـادي كأنـي نزحتُ الدمع فيها من ركـيّ

والواقع ان الشاعر لم ينشز في هذه المقدمة عن اجواء الحزن والبكاء بسوى بيت واحد يقول فيه :

وعصـــر خلاعـــةٍ أحمـــدتُ فيـــه الشـــ بابَ وصِحّةَ العهد الرخـيّ

فعبارة (عصر خلاعةٍ) هنا أساءت الى هذه المقدّمة والى موضوع القصيدة الذي هو أجلّ من ان تذكر فيه مثل هذه العبارة ثم تدرج البكاء ليكون من باب اولى بكاءً على الامام الحسين (عليه السلام)

ولو أكْرمتِ دمعكِ يـا شؤونـي بكيتِ على الامـام الفاطمـيّ

ثم يبدأ الشاعر حكاية استشهاد الحسين (عليه السلام) مقترنة بالندب والبكاء ، مع استرسال في ذكر كل القيم الروحية العالية التي استشهد من اجلها سليل بيت النبوة وما هو عليه من شرف المكانة والخلق والمحتد :

علـــى انـــدى الانـــام يـــدأ ووجهـــاً وأرجحهم وقاراً فـي النّـديّ وأطهرهم
وخير العالمين أبـاً وأمّـاً ثرى عرقٍ زكـيّ

ثم استعرض مقتل الحسين (عليه السلام) وما حصل لاهل بيته ومواليه

وساروا بالكرائم من قريشٍ فيا ســـبايا فـــوق اكـــوار المطـــيّ
لله يوم نعـوهُ مـاذا وعى سمعُ الرسّولِ من النعـيّ

وأنحى باللوم والتهجم على قاتليه الذين خانوا بقتله عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)

فيـا عُصـب الضـلالة كيـف جـزتم عنـاداً عـن صـراطِكمُ السـويّ
فألقَيتمْ وعهدكُمُ قريـب وراء ظهوركم عهدَ النبـيّ

ثم يهدي سلامه للائمة الاثني عشر[112] معدداً اماكن مراقد هم الشريفة

لطيبـــة والبقيـــع وكـــربلاءٍ وســـامرّى وفيـــدٍ والغَـــريّ
وزوراءِ العراقِ وأرضِ طـوسٍ سقاها الغيثُ من بلدٍ قصـيّ

حقيقة الحياة والموت :

يرى البعض ان الموت اشكالية [113] مثله مثل الحياة بإشكالياتها المتعددة[114] والواقع ان الموت هذه اللحظة السكونية – عرفه الانسان مُذ فطر على الحياة ، فهو حقيقة شمولية ، وناموس كوني ، وحسبنا قول الله عز وجل : ((نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على ان نبدّلَ أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون))[115] وقد عبَّر شعراؤنا القدامى عن هذه الحقيقة ببساطة متناهية ، اذ يقول أحدهم :[116]

وكلٌ ذي غيبـة يـؤوب وغائبُ المـوت لا يؤوبُ

فلم تكن هذه الاشكالية تتحول لديهم الى مشكلة مطلوب حلّها او التصدّي لها وفك رموزها ، ويعلل بدوي هذا الامر بأن ((الشعور بالاشكال يقتضي من صاحبه أن يكون على درجة عليا من التطور الروحي ، وأن يكون ذا فكر ممتاز وعلى اتصال مباشر بالينبوع الاصلي للوجود والحياة))[117] وربما يكون في هذا التعليل شيء من الصواب ، ولكن ما نلمسه من مواقف الشعراء في القرن السادس الهجري ونحسبه كذلك في ما سبقه او لحقه من زمن ، يفضي الى الاقرار بالموت بوصفه اشكالية قدرية لا مجال لمناقشتها او التصدي لها ، وفي هذا السياق نجد الرئيس أبا عليّ ابن الشاطر الانباري يقول على لسان رجل متوفى [118]

يـــا واقفـــين بنـــا ألـــم تتيقنـــوا انّ الحِمـــامَ بكـــم علينـــا قـــادمُ
لا تســـــتغرّوا بالحيـــــاة فـــــإنكم تبنـــون والمـــوت المفـــرق هـــادمُ
لـو تنزلـون بشعبنـا لعرفتـمُ ساوى الردى أنّ المفـرّطَ فـي التـزوّدِ نـادِمُ حيـث
ما بيننـا فأحلّنـا المخدّمُ واحد والخـادمُ

هي اذن نظرة تتأرجح بين الاستسلام وبين الاسى من فعل الموت الهدّام وبين الاقرار بعدالة الموت وناموسه الذي يخضع له الاكابر والأصاغر ، واستخدام الشاعر مفردات الموت ، والرّدى دليل تشبّعه بفكرة الموت وهو يقف في حضرة الاموات ومفردات التضاد مثل الحياة والموت ، والبناء والهدم ، تشير بصورة واضحة الى احساس باشكالية الحياة والموت لا ينقل صاحبه الى حالة التصدّي لها ، بل الدعوة للعزوف عن احد قطبيها وهو الحياة .

تتالى هذه المقارنة لدى الشعراء برؤى لا تكاد تختلف في اطارها العام بسوى تلك اللمسات الخاصة التي يضيفها بعضهم دون البعض الاخر فقد ((اضحى الشعور بالموت الممثل الوحيد للحقيقة الانسانية))[119] ، فهذا ابو الهيجاء شهقيروز بن ابي الفوارس الشاعر[120] ينشد مجيباً هاتفاً في منامه [121] :

ولكـــنّ فـــي حـــدثان المنـــون ... علـــى الحـــيّ أعظـــم شـــيءٍ حـــدثْ
فبينـــــا يُـــــرى نافـــــذاً أمـــــرُه ... الـــى ان تـــرى المـــوت فيـــه نفـــثْ
لقـــد ســـاقنا ســـائقُ مُعِنـــفُ ... اذا ســـار فـــي اللّقَـــم الـــوعر حـــثْ
فـــلا تحســـبّنا تُركنـــا سُـــدىً ... ولا تحســـبنّا خُلِقْنـــا عبـــثْ
فما يدعُ الله مِـنْ ميّـتٍ ... ولا هالكِ الشخص إلا بعـثْ

فالمنون ، والموت ، وميت ، وهالك ، مفردات لابدّ من وجودها في سياق لفظي معبّر عن حدث الموت ، أما ثنائية التضاد بين حقيقتي الموت والحياة فقد ساقته الى تأمل حكيم افضى به الى ايمان راسخ بعدم عبثيّة الخلْق والحياة والموت مقتبساً من قوله تعالى : (أيحسبُ الإنسان أن يُترك سدى))[122] وقوله تعالى : ((أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنّكم إلينا لا ترجِعون))[123].

الخاتمة :

كان هذا البحث محاولة لرصد شعر الرثاء في العراق في القرن السادس الهجري ، ودراسته دراسة موضوعية فنية ، تتقصىّ الجوانب الابداعية منصرفة من الكم الى الكيف ولو وقع في قصيدة واحدة ، واحالنا البحث عن الموضوع الى مباحث شملت رثاء الذات ، ورثاء الابناء ورثاء الاقارب ، ورثاء الخلفاء والوزراء واكابر الناس ، ورثاء النساء ، ورثاء آل البيت ، وحقيقة الحياة والموت .

في كل نوع من هذه الانواع اختلفت مستويات الجودة ، وليس لنا ان نطلق احكاما عامة متعسفة تقسر هذا الشعر على الانضواء تحتها ، واذا كان الرثاء ندباً وتأبيناً وتعزية يدخل في مضامين كثيرة من قصائد الرثاء ؛ فقد وجدنا ان ألصق انواعه بمعنى الندب والبكاء هو رثاء الذات ، ورثاء الابناء ، والاقارب لما توافر عليه من صدق شعوري انعكس صدقا في نقل التجربة ، اما التأبين والعزاء فكان وثيق الصلة برثاء الخلفاء والوزراء واكابر الناس ورثاء نسائهم ، وتجلّت مشكلة الانسان الازلية في البحث عن الخلود بين حقيقة الحياة والموت.

ولئن غلب على هذا الشعر التقليد والنمطية شأنه شأن غيره من فنون الشعر الاخرى فهذا لا ينفي وجود نماذج توافرت على كثير من عناصر الابداع ، واذا كانت ضرورة قلة الشعر قد ألجأتني الى البحث عن النص المناسب حيثما وجد دون الاعتماد على النخبة فقد اعانتني على الاحتكام الى النص بمستواه الموضوعي والفني وليس بمرجعيته . ولو تحدثنا عن الرثاء بكونه عاطفة انسانية تنبعث من وجدان الراثي فقد لا نستطيع توظيف هذه العاطفة لتشمل كل انواع الرثاء لما بينها من تفاوت في مستويات وكمية الدفق الشعوري لذا فمن الاجدر ان نبحث عن نجاح الشاعر في التوظيف الفني لتجربته الشعرية وما حشد لها من طاقات تقنعنا بمصداقية التجربة الشعورية وكثيرا ما وضعنا ايدينا على لمسات فنية جميلة بدت في الاسلوب او في الصور الفنية التي جسّدت المضامين وصنعت الاطر التشكيلية للوحة الرثاء ، وتراوحت هذه المراثي بين المقطوعات والقصائد خلت في اغلبها من المقدمات التقليدية ، اما لغة الشعر فقد كانت لغة بسيطة بعيدة عن التعقيد بخاصة حين يكون المرثي من المقربين ، وكما في رثاء الابناء والاقارب ، كما في رثاء الذات ، وقد تتصاعد قليلا باتجاه التفخيم والتكلف بعض الشيء حين يكون المرثي من ذوي السلطان والجاه كما نجد في رثاء الخلفاء والوزراء ورجال الدولة ، وفي كلتا الحالين اعطت هذه اللغة نتائجها في سهولة الاسلوب وتماسكه ووضوحه ووجدنا ألفاظ الرثاء مثل : البكاء ، والدموع، والجزع ، والرزء، والمصيبة ، والموت ، والحِمام ... وغيرها تلعب دورا كبيرا في تجسيد حالة الحزن او محاولة اثارة العاطفة ، وقد تضفي بُعداً سياقياً ، ودلالات معنوية يمكن ملاحظتها بقراءات متعددة من غير مفاضلات مفتعلة بين الالفاظ كما قد يزعم

البعض من ان ورود ألفاظ معينة دون غيرها ياتي ((لتخفيف صدمة الموت ووقعه على النفس))[124]

وقد اثبتت احدى الدراسات احصائيا ان لفظة (الموت) التي هي اكثر الالفاظ مباشرة للمفهوم استخدمت اكثر من غيرها في رثاء الذات[125] على سبيل المثال ، كما كانت الفاظ التضاد اللغوي تكرس الاحساس لدى الشاعر والمتلقي باحتباس المرء بين ثنائيتين لا ثالث لهما، الموت والحياة ، والشباب والشيخوخة ، الصحة والمرض ، والقوة والضعف ..الخ وكان للتكرار الذي استخدمه معظم الشعراء الراثين فائدته في اشاعة جوٍ من الندب الحزين ، سواء كان في تكرار اسم المرثي وكنيته ، او نوع العلاقة بينه وبين الراثي ، مثل : الابن ، والاخ ، والصديق ، او بتكرار الفاظ الموت ومرادفاته .

وتأتي الصور الفنية وجها من اوجه الدلالة لاعطاء خصوصية للمعنى وتأثير في طريقة عرضه ، وان كانت لا تحدث تغييراً فيه .

وعلى العموم فقد لاحظنا في بعض انواع الرثاء نوعا من الاستقلال والتمرد على البناء التقليدي للقصيدة العربية مثل : رثاء الذات ، ورثاء الابناء ، اذ بدت اكثر تحررا وانفلاتا من المقدمة الطللية ، واكثر تعبيرا عن الحدث الخاص .

الهوامش :

(1) ينظر ، الشعر العراقي في القرن السادس الهجري ، مزهر عبد السوداني ، ص145 .

(2) ص. ن

(3) كتاب العين، لابي عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي (175هـ) ، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور ابراهيم السامرائي ، دار الحرية للطباعة – بغداد ،1985 . مادة (رثى) ، 8: /234 ، مقاييس اللغة ، احمد بن فارس (395هـ) ، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت ، مادة (رثى) 1 : 43 .

(4) لسان العرب ، لابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور ، دار صادر – بيروت 1 : 83 ، وورد في مقاييس اللغة في مادة (رثّ) ، 2 : 384،وفي القاموس المحيط ، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر – بيروت ، مادة (رثأ) مهموزا ، ص334 .

(5) مقاييس اللغة 2 : 418 .

(6) العمدة في محاسن الشعر وادابه ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط3 ، مطبعة السعادة – القاهرة ، 1383هـ – 1963م ، 1 : 121 .

(7) في الشعر العباسي ، الرؤية والفن ، عز الدين اسماعيل ، مطبعة القاهرة الجديدة ، دار المعارف – القاهرة ، 1980 ، ص80 .

(8) العمدة 1 : 121 .

(9) نهاية الارب في فنون الادب ، النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (733هـ) ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية،المؤسسة المصرية العامة للتالي والترجمة والنشر1374هـ-1955م،2:161

(10) ينظر لسان العرب ، مادة (أبن) 13 : 4 ، وقال ابن سلام الجمحي : ((اخبرني يونس بن حبيب ان التأبين مدح الميت والثناء عليه)) طبقات فحول الشعراء ، محمد ابن سلام الجمحي (231هـ) ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة (د.ت) ، ص209 .

(11) البيان والتبيين ، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، 2 : 320 .

(12) المحاسن والمساوئ ، ابراهيم بن البيهقي ، دار صادر – بيروت ، 1380هـ – 1960م ، ص346 .

(13) ص . ن .

(14) احوال النفس ، رسالة في النفس وبقائها ومعادها ، ابن سينا ، تحقيق احمد فؤاد الاهواني ،دار احياء الكتب العربية- القاهرة ، 1952 ، ص184 .

(14) احوال النفس ، رسالة في النفس وبقائها ومعادها ، ابن سينا ، تحقيق احمد فؤاد الاهواني ،دار احياء الكتب العربية- القاهرة ، 1952 ، ص183 .

(15) سيكولوجية الشخصية ، سيد محمد غنيم ، دار النهضة العربية – القاهرة ، 1975 ، ص677 .

(16) الأعلى / 16 ، وقوله تعالى : ((كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الاخرة)) ، القيامة /20 ، 21 .

(17) ينظر رثاء الذات في الشعر العربي الى نهاية العصر الاموي ، ازدهار عبد الرزاق التميمي ، رسالة ماجستير على الالة الكاتبة ، الجامعة المستنصرية / بغداد ، 1410هـ 1989م ، ص 105 .

(18) البيان والتبيين ، 1 : 188 .

(19) تنظر ترجمته في خريدة القصر وجريدة العصر / قسم العراق ، العماد الاصفهاني ، تحقيق محمد بهجة الاثري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، 1384هـ – 1964 م ، 2 : 219 .

(20) خريدة القصر / قسم العرق ، 2 : 219 .

(21) تنظر في ترجمته الخريدة / قسم العراق ، 2 : 70 .

(22) الخريدة / قسم العراق ، 2 : 132 .

(23) هو ابو السمال الاسدي ، شاعر جاهلي ، ينظر المعمرون والوصايا ،لابي حاتم السجستاني (250هـ)، تحقيق عبد المنعم عامر ، دار احياء الكتب العربية – القاهرة ، 1961 ، ص66 .

(24) قيل : ((ان العرب ما بكت على شيء مثلما بكت على الشباب)) ينظر ، بكاء الناس على الشباب وجزعهم من الشيب ، ابن الجوزي ، تحقيق هلال ناجي ، مجلة المورد ، م2 ، ع3 ، 1973 ، ص93 .

(25) هو سعيد ابن المبارك الدهان (569هـ) ، تنظر ترجمته في الخريدة / قسم العراق ، 2 : 132 .

(26) الخريدة / قسم العراق 2 : 132 .

(27) ابن مقلة ، ابو علي محمد بن علي بن مقلة (328هـ) ، اول من كتب الخط البديع ، ينظر ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (597هـ) ، دار صادر – بيروت، 1358هـ

، 10 : 123 أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان احوال العلوم ، صديق بن حسن القنوجي ، تحقيق عبد الجبار زكار ، دار الكتب العلمية – بيروت ، 1978 . ص85

(28) الخريدة / قسم العراق 1 : 31 .

(29) سعد بن علي الوراق الكتبي الحظيري (568هـ) ، تنظر ترجمته في الخريدة / قسم العراق 4 / 1 : 28 ، المختصر المحتاج اليه من تاريخ الحافظ ابي عبد الله ابن الدبيثي ، انتقاء محمد بن احمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق د.مصطفى جواد ، مطبعة الزمان / بغداد ، 1963 ، 2 : 79 ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، 10 : 241 .. وغيرها .

(30) الخريدة / قسم العراق 4 / 1 : 43 .

(31) ابن التلميذ، هبة الله بن صاعد امين الدولة ، حكيم طبيب ، له شعر لطيف ، توفي في بغداد (560هـ)، تنظر ترجمته في الخريدة / قسم العراق 2/3 : 123 – 130 ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ابن ابي اصيبعة ، تحقيق د. نزار رضا ، دار مكتبة الحياة – بيروت ، 1965م ، ص349 .

(32) الخريدة / قسم العراق 2 : 223 .

(33) البلهنية : سعة العيش ورخاؤه ، المِجْمل : المتئِد والمعتدل .

(34) ترجمته في وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، شمس الدين احمد بن محمد ابن خلكان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة – مصر ، 1377هـ ، 2 : 451

(35) وفيات الاعيان 2 : 452 .

(36) ابو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب الشاعر المعروف بسبط ابن التعاويذي من اشهر شعراء العراق في القن السادس للهجرة ، ولد 519هـ ، وتوفي سنة 583هـ ، ترجمته في الخريدة / قسم العراق 3 / 2 : 7 – 57 ، وفيات الاعيان 2 : 19 ، نكت الهيمان في نكت العميان ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، المطبعة الجمالية ، مصر ، 1911 ، ص259 .

(37) تنظر على سبيل المثال مدحته في الخليفة الناصر لدين الله ، الديوان ، ص309 ، ق208 ، كذلك مدحته لمجد الدين ابي الفضل هبة الله بن الصاحب ، الديوان ، ص6 ، ق2 .

(38) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص482 ، ق314 .

(39) طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام ، ص226 .

(40) الكامل في اللغة والادب ، المبرد ، محمد بن يزيد ، (258هـ) تعليق محمد ابو الفضل ابراهيم ، وسعد شحاته ، مطبعة نهضة مصر ، 1956 ، 4 : 250 .

(41) العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، شرح احمد امين واخرين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ، 1969 م ، 3 : 258 .

(42) البيان والتبيين، 2 : 320

(43) من آل ابي الجبر امراء البطائح ، ترجمته في الخريدة / قسم العراق ، 2/4 : 547 ، نكت الهميان في نكت العميان،وفيه ان عينيه ذهبتا حزنا على ابن له توفي ، ص115 ، المختصر المحتاج اليه ،1: 215

(44) الخريدة / قسم العراق ، 4 / 2 : 555 .

(45) ينظر كتاب الحيوان ، الجاحظ (255هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط2 ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي–مصر، 2 /20 ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط1، مطبعة السعادة، 1955، 1: 125.

(46) تنظر الابيات 18–27 ، من القصيدة ذاتها .

(47) ينظر شرح اشعار الهذليين ، صنعة ابي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، محمود محمد شاكر ، مكتبة دار العروبة ، مطبعة المدني ، 2 : 4 –40

(48) يرى بعض الباحثين انها ابيات : ((على الغاية من الصدق مع غير قليل من سذاجة الشيخوخة المفجوعة)) الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ، علي جواد الطاهر ، ط2 ، دار الرائد العربي – بيروت ، 1985 م – 1405هـ ، ص395 .

(49) في النقد الادبي ، دراسة وتطبيق كمال نشأة ، النجف الاشرف ، 1970 ، ص20 .

(50) الخريدة / قسم العراق ، 1/3 : 265

(51) رثاء الابناء في الشعر العربي ، مخيمر صالح موسى ، مكتبة المنار – الزرقاء ، الاردن ، ص 38 .

(52) ديوان بشار بن برد ، نشر محمد الطاهر ابن عاشور ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ، 1 : 256 .

(53) الشعر والشعراء في العصر العباسي ، مصطفى الشكعة ، ط2 ، دار العلم للملايين – بيروت ، 1975، ص678 .

(54) الخريدة / قسم العراق ، 1/3 : 195 –196 ، وفيها ترجمة الشاعر .

(55) ديوان البحتري ، دار صادر – بيروت (د.ت) ، 2 / 54 .

(56) سمط اللآلي في شرح امالي القالي ، البكري ، ابو عبيد الاونبي ، تصحيح عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ، 1354هـ – 1936م ، 2 : 804 .

(57) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص38 ، ق84 .

(58) التعازي والمراثي ، المبرد ، محمد بن يزيد ، (285هـ) ، حققه وقدّم له محمد الديباجي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، مطبعة زيد بن ثابت ، دمشق 1976 ، ص27 .

(59) ابو الحسن علي بن احمد المقرئ والمؤدب (545هـ) ، شاعر ومقرئ ومعلم للصبيان في بغداد ، تنظر الخريدة / قسم العراق ، 1/3 : 329 –330 .

(60) الخريدة / قسم العراق ، 2/4 : 685 –689 ، والشاعرة هي : ام علي الرشيدة بنت الفقيه ابي الفضل بن محمد التميمي المالكي ، كانت تعيش في البصرة حوالي منتصف القرن السادس الهجري .

(61) العمدة ، ابن رشيق ، 2 : 153 .

(62) البيان والتبيين ، 2 : 320 ، نهاية الأرب ، 5 : 162 .

(63) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص58 ، ق36 .

(64) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص104 ، ق72 .

(65) ديوان حيص بيص ، تحقيق مكي السيد جاسم ، وشاكر هادي شكر ، سلسلة كتب التراث ، مطبعة وزارة الاعلام – بغداد 1974 ، 1 : 341 –342 .

(66) ينظر الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ، ص396 .

(67) هو مكي بن محمد ابن هبيرة ، اخو الوزير عون الدين ابن هبيرة ، توفي في زمان اخيه ، تنظر ترجمته في الخريدة / قسم العراق ، 1 : 121 –122 .

(68) ينظر الديوان ، ديباجة القصيدة ، 83 ، ص135 .

(69) الشاعر هو الشريف ابو محمد الحسن ابن ابي الضوء العلوي الحسيني (537 هـ) ، يرثي النقيب ابا عبد الله احمد بن ابي الحسن العلوي الحسيني نقيب الطالبين ، تنظر في ترجمة الشاعر ، الخريدة / قسم العراق ، 2/3 : 284 ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغرى بردى، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة ، 1929 – 1956 م ، 5 : 271 ، وفيات الاعيان، 2 : 148 ، وفي ترجمة المرثي تنظر الخريدة / قسم العراق ، 1 : 351 .

(70) ينظر نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، ابو الفرج الكاتب البغدادي ، تحقيق كمال مصطفى ، ط2 ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، 1963 ، ص 20 .

(71) ينظر الرثاء ، د. شوقي ضيف ، ط4 ، فنون الادب العربي ، دار المعارف – مصر ، 1987 ، ص56.

(72) ينظر شعر الرثاء السياسي للامويين منذ قيام دولتهم حتى سنة 227هـ ، علي حسين التمر ، رسالة دكتوراه ، جامعة الموصل ، 1996 ، ص21 وما بعدها .

(73) (74) البردة والقضيب ، اثران نبويان استحوذ عليهما العباسيون فصارا من شارات الخلافة العباسية .

(75) ترجمته في الخريدة / قسم العراق ، 1/3 : 107 .

(76) قتل سنة 529هـ في اسر السلاجقة ، ينظر في ترجمته الخريدة / قسم العراق 1 : 29 ، المنتظم في اخبار الملوك والامم ، 10 /49 ، البداية والنهاية ، اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، ابو الفداء ، مكتبة المعارف – بيروت ، 12 : 208 .

(77) العمدة في محاسن الشعر وادابه ، 1 : 150 .

(78) توفي سنة 593 هـ ، ترجمته في مختصر ابن الدبيثي ، 2 : 19 ، تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ، ابن الفوطي ، كمال الدين عبد الرزاق بن احمد الشيباني (723هـ) ، تحقيق د. مصطفى جواد، المطبعة الهاشمية – دمشق ، 1962 ، 1 : 576 .

(79) الخريدة / قسم العراق ، 1/4 : 267 – 269 .

(80) شعراء الدولتين الاموية والعباسية ، د. حسين عطوان ، ط2 ، دار الجيل – بيروت ، 1981 ، ص378.

(81) ديوان الابله البغدادي ، ابي عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله (ت579هـ) رسالة ماجستير مطبوعة على الالة الكاتبة ، ، تحقيق سعاد جاسم محمد ، باشراف د. ناظم رشيد شيخو ، جامعة الموصل ، 1405هـ –1985 ، ص224 ، ق2 .

(82) يقول العماد الاصفهاني : ((وهو الذي اقام حرمة دار الخلافة ، واعاد رونقها ، وحفظ رمقها ، وقطع طمع الاعاجم عنها ، وحكّم يأسهم منها)) الخريدة / قسم العراق 1 : 35 ، وينظر الكامل في التاريخ 11: 103 ، ط2 . إذ ورد في حوادث سنة 552هـ حصار بغداد من قبل السلاجقة وبلاء الخليفة في اجلاء المحاصرين عنها ، وينظر ايضا البداية والنهاية 12 : 210 .

(83) الاحكام السطانية ، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ، دار الكتب العلمية – بيروت (د.ت) ، ص26 .

(84) ذكر ابن الجوزي في حوادث سنة 525هـ ان ابن المسترشد توفي بالجدري وكان له من العمر احدى وعشرون سنة ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم 10 : 20 ، وتنظر الخريدة / قسم العراق 1 : 344 .

(85) هو اخو الخليفة المسترشد بالله ، توفي سنة 525 هـ ، ينظر المنتظم 10: 23 ، الكامل في التاريخ 10: 255 .

(86) الخريدة / قسم العراق 1 : 345 .

(87) روى ابن كثير في البداية والنهاية في حوادث سنة 512هـ ان الامير ابا الحسن علي بن المستظهر هرب الى الحلة عند بيعة المسترشد بالخلافة وطلب من اميرها دبيس بن صدقة اعانته على نزع الخلافة من اخيه مما اضطر اخاه الى ارسال جيش لمحاربته والقاء القبض عليه وحمله الى بغداد ثم طلبه العفو من اخيه ، ينظر البداية والنهاية ، 12 : 203 .

(88) الخريدة / قسم العراق 1 : 6 ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، 10 : 217 ، وقد ذكر ابن الجوزي انه رثي ، بمراثٍ كثيرةٍ الذيل على طبقات الحنابلة ، ابن رجب الحنبلي – بيروت ، 1370هـ ، 1 : 286.

(89) شاعر من وُلْدِ الراعي النميري ، ولد في الشام ، وعاش في بغداد ، كان كثير الانقطاع الى الوزير ابن هبيرة ، توفي سنة (588هـ) تنظر في ترجمته : الخريدة / قسم العراق ، 2/3 : 455 ، المنتظم 10 : 217 ، الذيل على طبقات الحنابلة ، 1 : 374 .

(90) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص350–354 ، ق224 .

(91) الخريدة / قسم العراق 2/3 : 475 .

(92) تنظر على سبيل المثال مرثية الحيص بيص في الوزير ابي علي جلال الدين الحسن بن علي بن صدقة (ت 522هـ) ، ديوان حيص بيص 1 : 322 كذلك بيتان في رثاء الوزير انو شروان بن خالد (ت532 هـ) ، ديوان حيص بيص 1 : 298 .

(93) صاحب الحلة المزيدية ، ويلقب (ملك العرب) ، وقعت بينه وبين الخليفة المسترشد بالله فتن وحروب ، واتهم بقتل الخليفة ، فقتل بعده بشهر على يد السلاجقة سنة (529هـ) ، ترجمته في وفيات الاعيان 2 : 31 ، النجوم الزاهرة 5 : 256 ، البداية والنهاية 12 : 209 .

(94) ديوان الحيص بيص ، 1 : 338 ، ق109 .

(95) الامير فخر الدين ابو محمد ، من اكراد الحلة الجاوانيين ، كان من قواد العسكر في الامارة المزيدية ، قتل سنة (532هـ) ترجمته في الكامل في التاريخ ، 8 : 361 ، تلخيص مجمع الاداب ، 3/4 : 272 .

(96) ديوان حيص بيص ، 1 : 105 .

(97) شاعر ضرير من شعراء القرن السادس الهجري ، ترجمتة في الخريدة / قسم العراق ، 1/4 : 115 نكت الهميان في نكت العميان ، ص150 .

(98) ابو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الابري ، توفي سنة (549هـ) ترجمته في الخريدة / قسم العراق ، 1 : 144 ، المختصر المحتاج اليه من تاريخ بغداد ، ص48 .

(99) هنا اشارة الى الملائكة من قوله تعالى : ((وانّ عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون)) سورة الانفطار ، 10–12 وتنظر اشارة الخريدة / قسم العراق 1/4 : 117 الى ذلك.

(100) يقول ابن رشيق القيرواني : ((ومن اشد الرثاء صعوبة على الشاعر ان يرثي طفلا او امرأة لضيق الكلام عليه فيهما ، وقلة الصفات)) العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ط4 ، دار الجيل ، ص154 .

(101) هي سلجوقي خاتون بنت قلج ارسلان بن السلطان مسعود السلجوقي ، تنظر ديباجة القصيدة 138 .

(102) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص222–225 ، ق138 .

(103) احد علماء القرن السادس الهجري وصاحب المؤلفات الكثيرة ومن اشهرها كتابه (المنتظم في تاريخ الملوك والامم) توفي سنة (597هـ) .

(104) تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين للحافظ شهاب الدين ابي عبد الرحمن المعروف بابي شامة ، ط2 ، دار الجيل – بيروت ، 1974 ، ص15 .

(105) زعيم الدين ابو الفضل يحيى بن عبد الله بن محمد بن جعفر ، احد اعيان الدولة العباسية تولى المخزن زمن الخليفة المقتفي لأمر الله ، وبقي فيه في عهد المستنجد والمستضيء توفي سنة 570 للهجرة ، ترجمته في المنتظم ، 10 : 256 ، الكامل في التاريخ ، 11 : 50 النجوم الزاهرة ، 6 : 74 .

(106) ديوان الحيص بيص ، 3 : 370 .

(107) ملتحد : ملجأ ولعله اراد الاشارة الى قوله تعالى : ((لا مبدل لكلماتِهِ ولن تجد من دونه مُلتحدا)) الكهف /18 .

(108) هو ابو الحسن علي بن اسماعيل الجوهري المعروف بالركاب سلار العضدي من ظرفاء بغداد وفضلائها ، وله نظم رقيق ، توفي سنة 577هـ ترجمته في الخريدة / قسم العراق ، 2/3 : 54 ، المنتظم 10 : 301 ، البداية والنهاية ، 12 : 208 .

(109) ديوان الابله البغدادي ، ص371–372 ، ق61 .

(110) الابيات 14–17 .

(111) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص456 – 460 ، ق 293 .

(112) هم الامام علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) ، الحسن بن علي بن ابي طالب ، الحسين بن علي بن ابي طالب ، زين العابدين علي بن الحسين الملقب (السجّاد) ، ابو جعفر محمد الباقر بن زين العابدين علي ، جعفر الصادق بن محمد الباقر ، موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، ابو الحسن علي الرضا بن جعفر الصادق ، محمد الجواد بن علي الرضا ، ابو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد ، ابو محمد الحسن العسكري الخالص بنن علي الهادي ، القائم المهدي محمد بن الحسن العسكري .

(113) يُعرّف عبد الرحمن بدوي الاشكالية : ((بانها صفة تطلق على كل شيء يحتوي في داخله على تناقض وعلى تقابل في الاتجاهات وعلى تعارض عملي ..)) الموت والعبقرية عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، دار القلم – بيروت ، 1945 .

(114) ينظر رثاء الذات في الشعر العربي ، ازدهار عبد الرزاق التميمي ، ص4 .

(115) الواقعة ، 60–61 .

(116) ديوان عبيد بن الابرص ، تحقيق وشرح د. حسين نصار ، مطبعة البابي الحلبي – القاهرة ، 1957 ، ص13 ، ق5 .

(117) الموت والعبقرية ، ص4 .

(118) الخريدة / قسم العراق ، 1/3 : 300 .

(119) الشعر والموت ، فؤاد رفقه ، دار النهار للنشر ، بيروت ، 1973 ، ص23 .

(120) توفي سنة 530 هـ ، ترجمته في الخريدة / قسم العراق ، 2/3 : 297 ، معجم الادباء ، 11 : 272 ، فوات الوفيات ، ط2 ، 1 : 386 .

(121) الخريدة / قسم العراق ، 2/3 : 297 .

(122) القيامة /75 .

(123) المؤمنون / 23 .

(124) ينظر ، دور الكلمة في اللغة ، استيفن اولمان ، ترجمة د. كمال محمد بشر ، المطبعة العثمانية ، ط3، مكتبة الشباب – القاهرة ، 1972 ، ص178 .

(125) ينظر ، رثاء الذات ، ص249 .